د. محمد العمري

في بلاغة الخطاب الإقناعي

مدخل نظري وتطبيقي
لدراسة الخطابة العربية



الخطابة في القرن الأول نموذجا

أفريقيا الشرق

في بلاغة الخطاب الإقناعي

الطبعة الثانية مزيدة ومحينة

المؤلف ــ د. محمد العمري

عنوان الكتاب

في بلاغة الخطاب الإقناعي

مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية

الخطابة في القرن الأول نموذجا

رقم الإيداع القانوني 2000 / 632
ردمــك: 5-189-25-9981

أفريقيا الشرق ــ المغرب

159 مكرر شارع يعقوب المنصور ــ الدار البيضاء

الهاتف 04 95 25 - 13 98 25 ــ فاكس 80 00 44

أفريقيا الشرق ــ بيروت ــ لبنان

ص. ب. 3176 - 11

د. محمد العمري

في بلاغة الخطاب الإقناعي

مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية
الخطابة في القرن الأول نموذجا

أفريقيا الشرق

مقدمة الطبعة الثانية

لماذا طعبة ثانية ؟

برغم الجهد الذي بذلته في تأليف هذا الكتاب فقد اعتقدت عند صدوره في منتصف الثمانينات أن الحركة العلمية المتنامية سرعان ما ستضع بجانبه (وربما أمامه) كتبا أخرى في موضوعه البكر مادة ومنهاجا. وقد اتضح اليوم أن هذا التوقع لم يكن في مكانه فقد ظل البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي مغتربا، يعيش حياة الشتاة، في ديار المنطق أو في ديار اللسانيات التداولية. وبذلك ظل بعيداً عن النص الخطابي العربي القديم والحديث، كما ظل بعيداً عن حليفه التاريخي وقسيمه هموم الخطاب البلاغي، أي الشعر والشعرية.

مازال الطالب الجامعي ودارس الخطاب الإقناعي يقلب بصره في رفوف المكتبة العربية فلا يجد شيئا يغني في هذا الموضوع فيولي وجهته نحو المكتبة الفرنسية الإنجليزية، لا أستثني من ذلك إلا الكتاب الجماعي الذي أصدره أخيرا (1999) زملاؤنا في «فريق البحث في البلاغة والحجاج» بجامعة منوبة بتونس، تحت عنوان : «أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم».

فهذا العمل التمهيدي المساعد على دخول الموضوع، لباحثين من اختصاصات متعددة، يشكل في نظري أول حدث في هذا المجال منذ صدور : «بلاغة الخطاب الإقناعي». كما أنتظر بارتياح وتفاؤل صدور أطروحة الدكتوراة للصديق حمو النقاري، أستاذ المنطق بكلية الآداب بالرباط، وهي تدخل في صلب الموضوع متناولة الجدل والمناظرة عند الفلاسفة والمتكلمين العرب المسلمين.

فهذان الكتابان يشكلان دعماً للبحث في بلاغة الخطاب الإقناعي بما يقدمانه وما يحيلان عليه، ولذلك فرغم أنهما لا يزاحمان كتابنا هذا (في بلاغة الخطاب الإقناعي ...). لأنه متوجه في صميم عمله إلى التطبيق على الخطابة العربية في القرن الأول الهجري، فإنهما يمدانه بكثير من الدعم النظري، ويدعمان مشروعيته، ويفسران الإقبال الكبير الذي وجده عند الدارسين والمدرسين على حد سواء.

هذا، وقد قررت إعادة هذا الكتاب إلى واجهة المكتبة في الصيف الماضي، بعد نفاد طبعته الأولى منذ سنوات. قررت ذلك وأنا أتابع بعض الكتابات الصحفية الخطابية التي بدت وكأنها تكتشف أساليب الإقناع الاحتمالي والمغالط لأول مرة. في هذا الصدد كتبت سلسلة مقالات بعنوان : «حديث الإفك»، رداً على خطاب السيد عبد اللطيف جبرو في انتقاده لما نشر في مذكرات السيد محمد البصري (جريدة النشرة 1999). وفي ذلك السياق وجد الزميلُ الأستاذ حسن نجمي حاجة إلى إجراء حوار حول الخطابة السياسية في المغرب الحديث، وقد نشر هذا الحوار المطول في جريدة الاتحاد الاشتراكي (العددان 2، 4 / 10 / 99).

وفي هذا الامتداد شرعت في تهييء دراسة بلاغية للخطاب الدائر حول مشروع خطة إدماج المرأة الذي أثار الكثير من الجدل والنقد، فاختلط فيه الديني والسياسي. والنية معقودة على نشر هذه المناقشات والحوارات في كتاب يكون توأماً لبلاغة الخطاب الإقناعي، يخصص للخطابة الحديثة ؛ يرصد بعض خصوصياتها وبذلك يتكامل مع معطيات البلاغة القديمة والنص القديم في بلورة ملامح بلاغة إقناعية حجاجية.

وقد نشرنا مقالة في مجلة فكر ونقد (ع 25 ، 1999) بعنوان «البلاغة العامة والبلاغة المعممة»، حاولنا فيها رفع اللبس عن موقع الخطاب التداولي الإقناعي من البلاغة، إذ جعلناه أحد وجهي هذه العملة، ووجهها الثاني التخييل، فالبلاغة تضم في جانب منها كل الخطابات التخييلية من شعر وسرد وغيرهما، كما تضم في جانبها الثاني كل مكونات الخطاب التداولي ؛ من ضفاف المنطق إلى ضفاف التخييل. فبلاغة الخطاب الإقناعي تقابل بلاغة الخطاب التخييلي وتتداخل معها. وبهذا الفهم نظل مخلصين للعنوان الذي اخترناه لهذا الكتاب في طبعته الأولى.

مقدمة الطبعة الأولى
(1985)

تمهيد

لماذا البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي؟

اعتاد الدارسون العرب المحدثون وتبعهم في ذلك المدرسون في الثانويات والجامعات، معاملة النص الخطابي الإقناعي نفس معاملتهم للنص الشعري أو أي نص إنشائي آخر. وهذا يجافي الروح المنهجية التي تقتضي أخذ طبيعة الموضوع بعين الاعتبار عند تحديد منهج تناوله.

لقد تنبه أرسطو لذلك ففصل الخطابة عن الشعر، وألف في كل منهما كتابا مستقلا، وتبعه في ذلك الفلاسفة المسلمون فحرصوا على التفريق بين طبيعة الشعر الذي يهدف إلى التخييل وطبيعة الخطابة الهادفة إلى التصديق حسب الأحوال والاحتمال. وتطرق دارسوا النص القرآني إلى دراسة طبيعته الخطابية، وتعارضت في ذلك آراؤهم مع آراء الفلاسفة المتأثرين بالفلسفة اليونانية، وكان من

تجليات ذلك اختلاف فهمهم للآية القرآنية: "اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ".

أما البلاغيون فمنهم من تنبه للخصوصيات، واعتبرها عند تأليفه، مثل قدامة وابن رشيق وحازم واسحق ابن وهب.. ومنهم من لم يهتم بالتمييز إلا بشكل ثانوي خارج عن بناء مفاهيمه البلاغية، مثل ابن سنان الخفاجي وأكثر المشتغلين بالإعجاز. ولقد كانت لذلك انعكاسات سلبية وإيجابية لا مجال لبسطها هنا. ثم إن دراسة الخطاب الإقناعي قد صارت من الأولويات في العصر الحديث فاستعانت لذلك بالأبحاث الاجتماعية والنفسية.

بعد هذا، يستغربُ المتتبعُ انقطاع دارسينا عن القديم، وعدم مسايرتهم للحديث، في دراسة الخطاب الإقناعي، وتراثنا منه يضاهي التراث الشعري أو يأتي بعده. والحال أننا نجد فنونا أدبية أخرى تستقل بمناهجها الخاصة بها مثل الرواية والمسرح. وتُبذل فيها جهود تُبرز خصوصياتها وفعالية مناهجها.

إن دراسةَ الخطاب الإقناعي دراسةً شعرية لا تعدمُ الشرعية بصفة مطلقة، ولكنها تقف عند عنصر واحد من عناصر التأثير والإقناع التي يلجأ إليها الخطيب، وهو عنصر قد لا يكون له حضور مؤثر في بعض الخطب، وقد يكون مُهيمنا في بعضها الآخر. كما أن مكانته في الخطابة الأرسطية تالية لمكانة عناصر الإقناع الأخرى.

فإذا كانت المسألة بهذا الحجم، فهل يستطيع هذا المدخلُ حملَ عبء الريادة وسد الفراغ؟ إن ذلك لا يمكن ادعاؤه بوجه. ولكن الذي لاشك فيه أني أحسست بهذا الفراغ، وبحثت جهدي فلم أجد من ندَبَ

نفسه للمساهمة في سده، دون تهميش للبلاغة العربية أو بُعْدٍ عن النص الخطابي العربي. فكان أن شرعتُ مع طلبتي في مناقشة الموضوع منذ سنتين، وبين أيدينا متن خطابي مقترح للدراسة (الخطابة في صدر الإسلام والعصر الأموي)، وفي جانب آخر كان هناك رُكام من التراث البلاغي العربي، ركام منفصل الحلقات غير إجرائي، تشعُّ في أثنائه ملاحظات عبقرية في الحديث عن (المقام) و(الشاهد) و(المثل) وفي دراسة أساليب النثر وصناعته. وكانت إلى جانب ذلك اجتهادات الفلاسفة المسلمين، خاصة ابن سينا وابن رشد في شرح أعمال أرسطو في الخطابة والشعر. وكان لكتاب الخطابة تأثير أوسع في المجالين: الخطابة والشعر. ثم رأيت الدارسين الغربيين المحدثين الذين لهم باعٌ في هذا المجال يستنيرون بآراء أرسطو، بل ويعتبرونها حديثة ومناسبة للمجتمعات الحالية. فزاد اقتناعي بإمكان تأطير اجتهادات البلاغيين العرب بالإطار العام للنظرية الأرسطية، وإغناء ذلك باجتهادات وإضافات البلاغيين ودارسي الخطاب الإقناعي من غير العرب في القديم والحديث في حدود ما يسمح به حجم هذا العمل والغرض الذي رُصِد له أولا.

لقد كان المتن الخطابي في هذه الدراسة حَكَمًا، يعصم من الإسقاط، ويبعد عن الإطلاق، في حين كانت النظرية وسيلة طموحه لوصل الخاص بالعام، وإعطاء ما يبدو منعزلا وظيفته ضمن نسق شامل. ولذلك قد تتخلى بعض الأبواب عن الإطار الأرسطي الصارم لتلبس لباسا عربيا صرفا، كما هو الحال في الشاهد والأسلوب. كما قد يؤدي تقسيم العمل حسب عناصر البناء الخطابي الأرسطي إلى تفاوت الفصول، وهذا شيء نحس به ونقدّره برغم شكليته، وهو أحد نتائج تطويع النظرية الأرسطية للمتن الخطابي العربي المتميز

بشاعريته.

هذه بداية لبحث واسع متعدد الجوانب، والأمل معقود على إخراجه مستقبلا في حلة أبهى، بتطوير المنهج وتعميم الدراسة لتشمل المتن الخطابي الحديث. وقد قيل: "الكتاب مولود قبل أوانه"، ولأن يولد قبل أوانه ويحضن خير من مجموع الأجنة الميتة في أرحام أمهاتها.

أبريل 1985.

الفصل الأول:

الموضوع والمنهج

1 ـ موضوع الكتاب

إن لفظ الخطابة ومشتقاته لا يمر على ذهن المستمع العربي العادي دون أن يثير إحساسا بالزيف وتجاوز الواقع، فنسمع "دعه يخطب" "كفى خطابة.." إلى آخر ما هنالك من العبارات المتضمنة لمعاني القدح. ودعك من الحديث عن أسباب هذا الموقف فذلك يجر إلى الحديث عن طبيعة الخطاب العربي الحالي الذي لا يتعامل مع الواقع بل يعوضه، فقد تدعي الخطبة أحيانا أنها خير حقيقي.

وقديما حمل أفلاطون، في محاوراته، على الخطابة لاهتمامها بالإقناع بدل البحث عن الحقيقة.

أما اهتمام الفلاسفة والبلاغيين الغربيين المحدثين ببلاغة الخطابة فراجع إلى قناعتهم بالدور الخطير الذي عادت تلعبه في توجيه الرأي وبلورة الفكر المعاصر[1].

---

[1] ـ يعرف شوبنهور Schopenhauer الخطابة/ الفصاحة بقوله: "هي مَلَكةُ جعل الآخرين يشاركوننا آراءنا وطريقة تفكيرنا في شيء ما، وكذلك إيصال عواطفنا الخاصة إليهم، وجماع القول أن نجعلهم يتعاطفون معنا. ويجب أن نصل إلى هذه النتيجة بغرس أفكارنا في أذهانهم بواسطة الكلمات، وذلك بقوة تجعل أفكارهم الخاصة تنصرف عن اتجاهها الأولي لتتبع أفكارنا التي ستقودها في مسارها" .(Poétique n.5 p.105)

وينظر حديث رولان بارث في صلاحية بلاغة الخطابة عند أرسطو للمجتمعات الديمقراطية البرلمانية الحديث في مجلة Communication n.16 وبيرلمان في

وبدأ الحنين من جديد إلى "ريطورية" أرسطو التي تتوسل إلى الإقناع في كل حالة على حدة بوسائل متنوعة حسب الأحوال، ونظرا للدور الذي تلعبه بلاغة الخطابة في التأثير في الرأي العام الوطني والدولي وتوجيهه بادرت الولايات المتحدة منذ عقود إلى إعادة الاعتبار إلى هذه البلاغة بتحويلها من مادة ملحقة بتعليم الإنجليزية إلى مادة مستقلة في شعبة خاصة بفن التواصل وخطاب الإقناع، ومنذ سنوات كان يعمل فيها، حسب بيرلمان، أكثر من خمسة آلاف أستاذ، وألفوا في هذه المادة آلاف الكتب، كما أنشئت هناك مجلة بعنوان "فلسفة وبلاغة"، يشرف عليها فلاسفة وبلاغيون، ولا تحتل الصورُ البلاغية (أو الأسلوب) سوى حيز ضيق جداً منها حسب عبارة بيرلمان[1].

ويتوصل المتحاوران في المحاورة الأولى من كتاب "جُرْجياس" لأفلاطون إلى "اعتبار الخطابة هي محدثة الإقناع الذي يتناول الاعتقاد، لا المعرفة، حول الحق والباطل"[2]، وكان ذلك تحت إلحاح سقراط الذي يُصر على أن المعرفة الحق من شأن الفلسفة.

والواقع أن محاورات أفلاطون في "جورجياس" و"فيدر" تُظهر مكانة الخطابة في المجتمع اليوناني القديم، وهي مكانة كانت تؤهلها لمنافسة الفلسفة، بل حاولت نفي هذه الأخيرة من مجال الحياة والسياسة. وقد تصدى سقراط لهذه النزعة التي استفحلت عند

كتابه L'Empire rhétorique p:7.

[1] - Ch. Perelman: l'Empire rhétorique p:14

[2] - جرجياس ص8، والمحصور من نص كلام المترجم. دار صادر.

السفسطائيين. لقد اعتاد القدماء، (حسب شيشرون) إلى زمان سقراط، أن يجعلوا جميع بحوثهم وعلومهم المتعلقة بالخلق وبواجبات الحياة والفضيلة والحُكومة والمدنية مرتبطة بفن الكلام ولكن بعد ذلك فصل سقراط الفصاحة عن الفلسفة، وواصل خلفاؤه ذلك التفريق، فازدرى الفلاسفةُ الفصاحة والخطباءُ الفلسفة.. وقد استَبعد خلفاءُ سقراط المدافعين عن القضايا (أمام المحاكم) من صفوفهم، ونزعوا عنهم لقب الفلاسفة الذي كان مشتركا بين الطرفين، على الرغم من أن القدماء كانوا يرون ملكة الكلام، وملكة الفهم متلازمتين بتناغم رائع[1]..".

وكان "إيسقراط يرى أن الفصاحة عملية خلاقة وهي مصدر المدنية والقوانين والفنون ومعظم خيرات الإنسانية، كما أنها العلامة الفارقة التي تميز الناس عن الوحوش مثلما هي أداة الحكمة ومختبرها"[2]. و"رأي أرسطو أن من غير اللائق أن يظل صامتا ويترك لإيسوقراط أطراف الكلام لذلك سعى إلى تزويد فلسفته بإيضاحات لائقة، وتميق في الأسلوب، وإلى ربط معرفة الأمور بمهارة الحديث عنها"[3]. وقد اكتسبت الخطابة هذه المكانة من دورها في الحياة اليونانية القائمة على نظام ديمقراطي يلعب فيه الإقناع دورا مهما سواء في المجالس الاستشارية أو المحاكم أو المحافل. و"إذا كان أرسطو استلهمَ التجمعاتِ السياسيةَ لوصف النوع التشاوري، والمحاكمَ لتمييز النوع القضائي، فإن المسابقات الخطابية المنعقدة خلال الألعاب

---

[1] ـ النقد الأدبي. 110/1.

[2] ـ نفسه 102/1.

[3] ـ نفسه 110/1.

الأولمبية هي التي أوحت إليه بخصوصيات النوع الاحتفالي[1].

وكانت الخطابة في أول أمرها تلتبس بالشعر كما التبست بالفلسفة فسعى أرسطو إلى التمييز بينهما بأن وضع كتابا في الخطابة وآخر في الشعر[2].

وتُحيل مادة (خطب) ومشتقاتها في المعاجم العربية على معاني منها:

1ـ "الشّأنُ"، أو "الأمرُ"، الذي تقع فيه المخاطبة صَغُر أو عظُم، فيقال: خَطْبٌ وخُطوب[3].
2ـ "المواجهةُ بالكلام"[4]، أو "مراجعة الكلام"[5] وهما الخطاب والمخاطبة. "والمخاطبة مفاعلة من الخِطاب والمشاورة"[6].

فتتناول المادةُ الموضوعَ والوسيلة في آن واحد، وفي ذلك ربط للكلام بالحدث أو المؤثر، وربما وجدنا في هذا أساساً للتفريق بين الخطابة والشعر، فالشعر معاناة فردية يُخاطِبُ فيها الشاعر نفسه التي يُجرّد منها مستمعا قبل التوجه إلى أي مستمع خارج الذات الشاعرة. وهذا التفريق يسمح باستيعاب الخطابة للكثير من القصائد التي استجابت لمؤثرات خارجية استجابة مباشرة يطبعها الحوار،

---

1 ـ بيرلمان L'Empire rhétorique. P. 32

2 ـ انظر هذه الملاحظة عند بارث في مقالته في مجلة Communication n. 16 . P.178

3 ـ الأساس، والقاموس واللسان (خطب).

4 ـ الأساس (خطب).

5 ـ اللسان (خطب).

6 ـ اللسان (خطب).

واستعمال القياس الخطابي مثل قول الكميت[1]:

يقولون: لم يورثْ! ولولا تُراثُه لقد شَركَتْ فيه بَكِيلٌ وأرْحَبُ
..ولا كانت الأنصارُ فيها أذلةً ولا غُيَّباً عنها إذِ الناسُ غُيَّبُ
فإنْ هِيَ لم تَصلُحْ لِحَيٍ سِواهُمْ فإن ذَوِي القُربَى أحَقُّ وأقْرَبُ

"والخطبة: اسمٌ للكلام الذي يَتكلم به الخطيب، فيوضعُ موضعَ المصدر"[2]. "ورجلٌ خطيب حسنُ الخطبة، وجمْع الخطيب خُطباء.. وخَطُبَ[...] صارَ خطيبا"[3].

حاولَ ابنُ وهب في (البرهان) أن يبلور هذين المعنيين ويربط بينهما ربطا سببيا في اتجاه الارتقاع بالمعنى إلى مستوى الاصطلاح:

"إن الخطابة مأخوذة من خطبتُ أخطب خطابةً.. واشتُق ذلك من الخَطب وهو الأمر الجليل، لأنه إنما يُقامُ بالخطب في الأمور التي تجل، والاسم منها خاطب مثل راحم فإذا جعل وصفا لازما قيل خطيب". "والخطبة الواحدة من المصدر.. والخطبة الكَلام المخطوب به[4] والخَطابة والخِطاب اشتقا من الخطب والمخاطبة لأنهما مسموعان".

فقد عُرِّفت الخطابة إذن باعتبارها مشاركة في فعل ذي شأن مخاطبة في خَطب، إذ المفاعلة تفيد الاشتراك. وهو تعريف يتجه نحو

---

[1] ـ الهاشميات20 (الأبيات 48،50،55). بكيل: حي من همدان. وأرحب: قبيلة من همدان.
[2] ـ اللسان (خطب).
[3] ـ نفسه.
[4] ـ البرهان 151-153.

وظيفة الخطابة. "فالخُطب (حسب قول ابن وهب) تستعمل في إصلاح ذات البَيْن، وإطفاء نار الحرب، وحَمالة الدماء، والتشييد للملك، والتأكيد للعهد، وفي عقد الإملاك، وفي الدعاء إلى الله.. وفي الإشادة بالمناقب، ولكل ما أريد ذِكرهُ ونشرُه وشهرتُه في الناس"[1].

وقد وضع المؤلف نصب عينيه موضوعات الخطابة في الجاهلية والإسلام سياسية ودينية واجتماعية.

وكما عُرّفت الخطابة العربية بموضوعها ووظيفتها عُرّفت ببنائها وشكلها. "ذهب أبو إسحق إلى أن الخطبة عند العرب: الكلام المنثور المسموع"[2]، وفي "التهذيب: الخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر"[3]. فنظر في هذا التعريف إلى الأسلوب وتنظيم القول، وهما عنصران بنائيان في الخطابة عند أرسطو إلى جانب الاحتجاج أو البراهين.

وفي الصناعتين للعسكري: "واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما لا يلحقهما وزن ولا تقفية"[4]. وذلك في معرض تمييزهما عن الشعر.

يعرّف أرسطو الخطابة حسب الترجمة العربية القديمة بقوله: "الريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور

---

[1] ـ البرهان 150. وفي الصناعتين للعسكري 154: "ومما يعرف أيضا من الخطابة والكتابة أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان".

[2] ـ اللسان (خطب)

[3] ـ نفسه.

[4] ـ الصناعتين 154.

المفردة"[1]، والتعريف بحسب الترجمة العربية لكتاب النقد الأدبي لوليام ك. ومزات، وكليث بروكس، هو: البلاغة يمكن أن تعرف إذن بأنها ملكة اكتشاف وسائل الإقناع الممكنة بالرجوع إلى الموضوع أيا كان[2].

ولعل الأهم من التعريف، كما يقول بارث Barthes ، هو كونها "وسيلةَ إنتاجٍ واحدٍ من الأشياء التي يمكن أن تكونَ أو لا تكون بدون تمييز، والتي مصدرها الشخص المبدعُ وليس الموضوع المبتَدع[3]. وهو بذلك، أي أرسطو، يُقيمُ الخطابةَ على الأسس التي حاربها أفلاطون، أي على أسسِ الاحتمال والإمكان حسبَ الأحوال[4].

وبهذا التعريف وما استتبعه من بحث في وسائل الإقناع والتأثير صار أرسطو أستاذاً لمن بحث بعده في موضوع الخطابة من القدماء، واكتست نظريته في التأثير حسب الاحتمال، وما يقبله الجمهور أو يرفضه، أهميةً كبيرة عند المحدثين.

---

1 ـ وفي ترجمة عبد الرحمن بدوي: "يمكن أن نَحُدَّ الخطابة بأنها: الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان". (الخطابة لأرسطو29).

2 ـ. النقد الأدبي 103/1.

وهو يستعمل "البلاغة" بدل "الخطابة" ترجمةً لكلمة: Rhétorique

3 - .Communication n. 16 P.179

4 ـ النقد الأدبي 103/1..

- 2 -

أسس بلاغة الخطاب الإقناعي

عناصر بناء الخطابة عند أرسطو ثلاثة[1]: 1) وسائل الإقناع أو البراهين، 2) والأسلوب أو البناء اللغوي 3) وترتيب أجزاء القول، ثم هناك عنصر الإلقاء الذي اعتبره الدارسون للخطابة بعد أرسطو، ومنهم البلاغيون العرب، عنصرا مستقلا، ويتضمن الحركة والصوت[2].

وهذه عناصر لا يختص بها الخطاب عند اليونان واللاتين دون العرب، ولا القديم دون الحديث، وإنما الاختلافُ في العنصر المهيمن فيها من حضارة لأخرى، فربما كانت للمنطق الأولوية عند اليونان فكان الاهتمام بالحجة (هذا إلى جانب العلاقات الديمقراطية)، في حين نجد الشعر علمَ العرب الذين لم يكن لهم علم أصح منه، فكانت للأسلوب والعبارة الصدارة، (هذا إلى العلاقات التناحرية في الجاهلية

---

[1] ـ انظر المكونات النصية (الإيجاد، التنظيم، العبارة) وغير النّصية (الذاكرة الإلقاء) في كتاب البلاغة والأسلوبية لهنريش بليت. ترجمة محمد العمري. (ط1 ص 23-32).

[2] ـ أرسطو: الخطابة. الترجمة العربية القديمة. تحقيق ع بدوي ص181. "إن اللاتي ينبغي أن يكون القول فيهن على مجرى الصناعة ثلاث (إحداهن): الإخبار من أي شيء تكون التصديقات، و(الثانية) ذكر اللاتي تستعمل في الألفاظ، و(الثالثة) أن كيف ينبغي أن تنظم أو تنسق أجزاء القول"

وطوال القرن الأول، وهو العصر الذهبي للخطابة). كما أن اختلاف الموضوعات والمخاطبين يقتضي تقديم وسيلة وتأخير أخرى، فما يُقدم بين يدي القضاة في الخطابة (القضائية) ليس هو ما يستعمل للتأثير على جمهور الناس في الخطابة الاحتفالية.

وبهذا الفهم وهذه المرونة تعامل أرسطو مع أنواع الخطابة الثلاثة الاستشارية والقضائية والاحتفالية.

ونحن إذ نسترشد بالهيكل العام لبلاغة الخطاب عند أرسطو لشموليتها نحتفظ لأنفسنا بحق التعامل مع النصوص العربية بما فيها من خصوصيات، كما نحاول أن نوظف المصطلحات البلاغية العربية بإدخالها فيما يناسبها ويستوعبُها من نظرية أرسطو، وعلى رأسها قضية: مراعاة المقام والحال التي نجعلها عنوانا للعلاقة بين الخطيب والمستمع. فالبلاغيون العرب، وإن لم يهتموا كثيرا بالدراسة النفسية والأخلاقية للمرسل والمتلقي، حاولوا أن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال، ملاحظات كثيرة فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين. ولا ينبغي أن نغفل بحال أثرَ كتاب الخطابة في البلاغة والنقد العربيين، وإن كنا لا نستطيع أن نخوض الآن في هذا الموضوع لأنه يقتضي عملا مستقلا[1]، وهذا التأثير أظهر

---

[1] ـ خصصنا الفصل الخامس من القسم الأول من كتابنا البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها لـ: "القراءة العربية للبلاغة اليونانية"، انظر على وجه الخصوص، المبحث الثاني من هذا الفصل بعنوان "فن الخطابة، الصحة والاعتدال" (ص221-281). وعالجنا قضية الأثر في مناسبات مختلفة من هذا الكتاب.

ما يكون في كتاب البرهان في وجوه البيان لأبي الحسين اسحق ابن وهب، فهذا الكتاب عبارة عن قراءة واعية ومستوعبة لكتاب الخطابة وربما لغيره من أعمال أرسطو في ضوء النص الخطابي[1]، كما نجد استثمارا لأعمال أرسطو في تحليل الخطاب في كتب الفلاسفة العرب نذكر منها فصل المقال لابن رشد، وسنعرض له.

ولقد نظر أرسطو في حديثه عن عناصر بناء الخطاب إلى الأطراف الثلاثة المكونة له والمساهمة في فعاليته، وهي: المُرسل (الخطيب)، والمتلقي (المستمع)، والرسالة (الخطبة)، "فالكتاب الأول من الخطابة هو كتاب مرسل الرسالة أي كتاب الخطيب. عالج فيه، على وجه خاص، مفهومَ البراهين بحسب تعلقها بالخطيب، ومدى انسجامه مع الجمهور، وذلك حسب أنواع الخطابة الثلاثة المعروفة القضائية والاستشارية والاحتفالية، والكتاب الثاني هو كتاب متلقي الرسالة، كتاب الجمهور عالج فيه عدداً من الانفعالات والأهواء، وكذا بعض البراهين غير أنها، هذه المرة، بحسب تلقيها، (وليس بحسب تصورها كما سلف)، والكتاب الثالث هو كتاب الرسالة نفسها وعالج فيه الأسلوب Lexis أو البيان Elocution أي الصور البلاغية، وتنظيم أجزاء القول Taxis"(2).

---

[1] - ولاشك كذلك أن قدامة بن جعفر قد استفاد من هذا الكتاب في الكثير مما أورده في كتابه (نقد الشعر).

[2] - R. Barthes : communication 16. P.179.

قدم الأستاذ هشام الرفي عرضاً وافيا لنظرية "الحجاج عند أرسطو". نشر القسم الأول منه - 140 صفحة - في الكتاب الجماعي: أهم نظريات الحجاج ي التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم. (ص49-269). كما أطر الأستاذ حمادي صمود هذا الكتاب بـ "مقدمة: في الخلفية النظرية للمصطلح" (ص11-48). ويُعتبر هذا

وقد كان على وعي باتساع مجال البحث في الخطابة وامتداده ليساهم فيه علم النفس والأخلاق والمنطق كما سيأتي.

العمل الجماعي الذي أنجزه "فريق البحث في البلاغة والحجاج" بكلية الآداب منّوبة بتونس بداية عملية في هذا المجال المهمل من الدرس البلاغي الحديث. جاء في كلمة الإهداء بخط صديقي الأستاذ حمادي صمود: "عزيزي محمد، هذا هم مشترك يؤرقنا في بحوثنا وحياتنا الجامعية أرجو أن تجد فيه ما يحببه إليك. تونس 1999". وقد وجدت ذلك فعلا، في الحدث والمحتوى على حد سوا.

- 3 -

الحُجج

والبراهين الخطابية

ننطلق هنا من نص مطول شامل لأرسطو من كتاب الخطابة في أول الكتاب الأول، جاء فيه:

"أما التصديقات فبعضها غيرُ صناعية، وبعضها صناعيةٌ. وأقصد بالأولى تلك التي لم نأت نحن بها، بل كانت موجودة من قبلُ، مثل الشهود، والتعذيب والصكوك وما أشبهها، وأقصد بالثانية: كلَّ ما يمكن إعدادُه بالحيلة وبمجهودنا. وهكذا ما علينا إلا الاستفادةُ من الأولى، بينما الثانية فيجب علينا اكتشافُها بأنفسنا.

والتصديقات التي يقدمها القولُ على ثلاثة أضرب: الأول يتوقف على أخلاقِ القائل، والثاني على تصيير السامع في حالة (نفسية) مَا، والثالث على القولِ نفسه، من حيث هو يُثبت أو يبدو أنه يُثبت.

والخطيب يُقنع بالأخلاق إذا كان كلامُه يُلقى على نحو يجعله

خليقاً بالثقة، لأننـا نستشـعر الثقـة علـى درجـة أكبر وباسـتعداد أوسـعَ بأشخاص مُعتَبَرين في كل الأمور بوجـه عـام، لكن إذا أعـوز اليقيـنُ وكـان مجـالٌ للشـك فـإن الثقـة تكـون[1] مطلقـة. وهـذا الضـرب مـن الإقناع، مثل سائر الضروب، ينبغي أن يحـدث عـن طريـق مـا يقولـه المتكلم، لا عن طريق ما يظنه الناس عن خلقه قبل أن يتكلـم. وليـس صحيحا ـ كما يزعـم بعض الكتـاب فـي مقـالاتهم عـن الخطابـة ـ أن الطيبة الشخصية التي يكشف عنها المتكلم لا تُسـهمُ بشـيء فـي قدرتـه على الإقناع، بل بالعكس، ينبغي أن يعد خلقـه أقـوى عنـاصر الإقنـاع لديه. ثم إن الاقتناع يمكن أن يتم بواسطة السامعين إذا كـانت الخطبـة مثيرة لمشاعرهم. فأحكامنا حين نكون مسرورين ودودين ليست هـي أحكامنـا حين نكـون مغموميـن ومعـادين. ونعتقـد أن معظـم الذيـن يصنفـون فـي الخطابـة اليوم يُريغُـون إلـى توجيه كـل جهودهـم نحـو إحداث هذه الآثار... وأخيراً فإن الإقناع يحـدث عـن الكـلام نفسـه إذا أثبتنـا حقيقـة أو شبهَ حقيقـةٍ بواسـطة حُجـج مقنعـة مناسـبة للحالـة المطلوبة.

ثم إذن هذه الوسائل الثلاثة لإحداث الإقناع، ومن يملكهـا يجـب أن يكون قادراً: (1) على التفكير المنطقي، (2) وعلى فهم الخلق الإنسـاني والخير فـي مختلـف أشـكالهما، (3) وأن يفهـم الانفعـالات، أعنـي أن يسميّها ويصفَهـا ويعـرفَ أسبابها والطـرق التـي بهـا تستثارُ. وهكذا يظهرُ أن الخطابة فرعٌ مـن الجدل، وأيضـا فـرعٌ مـن علـم الأخـلاق،

---

[1] ـ أي أننا على استعداد أكثر للثقة بقول الأخيار من الناس. وهذا صـحيـح مهمـا كان الموضوع، وهو صحيح صحة مطلقة في الأحوال التـي يستحيل فيهـا اليقين وتختلف الآراء. (المترجم).

يمكن أن يُدعَى بحقٍّ علمَ السياسة"[1].

ويعود في الكتاب الثالث ليجمل ما فصل في الكتاب الأول بقوله: "الإقناع ناتج في جميع الأحوال إما عن القضاة أنفسهم في تأثُّرهم بطريقة معينة، أو لأنهم يعدون المتكلمين ذَوِي خُلق معين، أو لأن شيئاً ما قد تبرهن. كذلك بينا المصادر التي ينبغي أن تُستَمَدَّ منها الضمائر - وبعضها خاصة والبعض الآخر مواضع مشركة عامة - "[2]

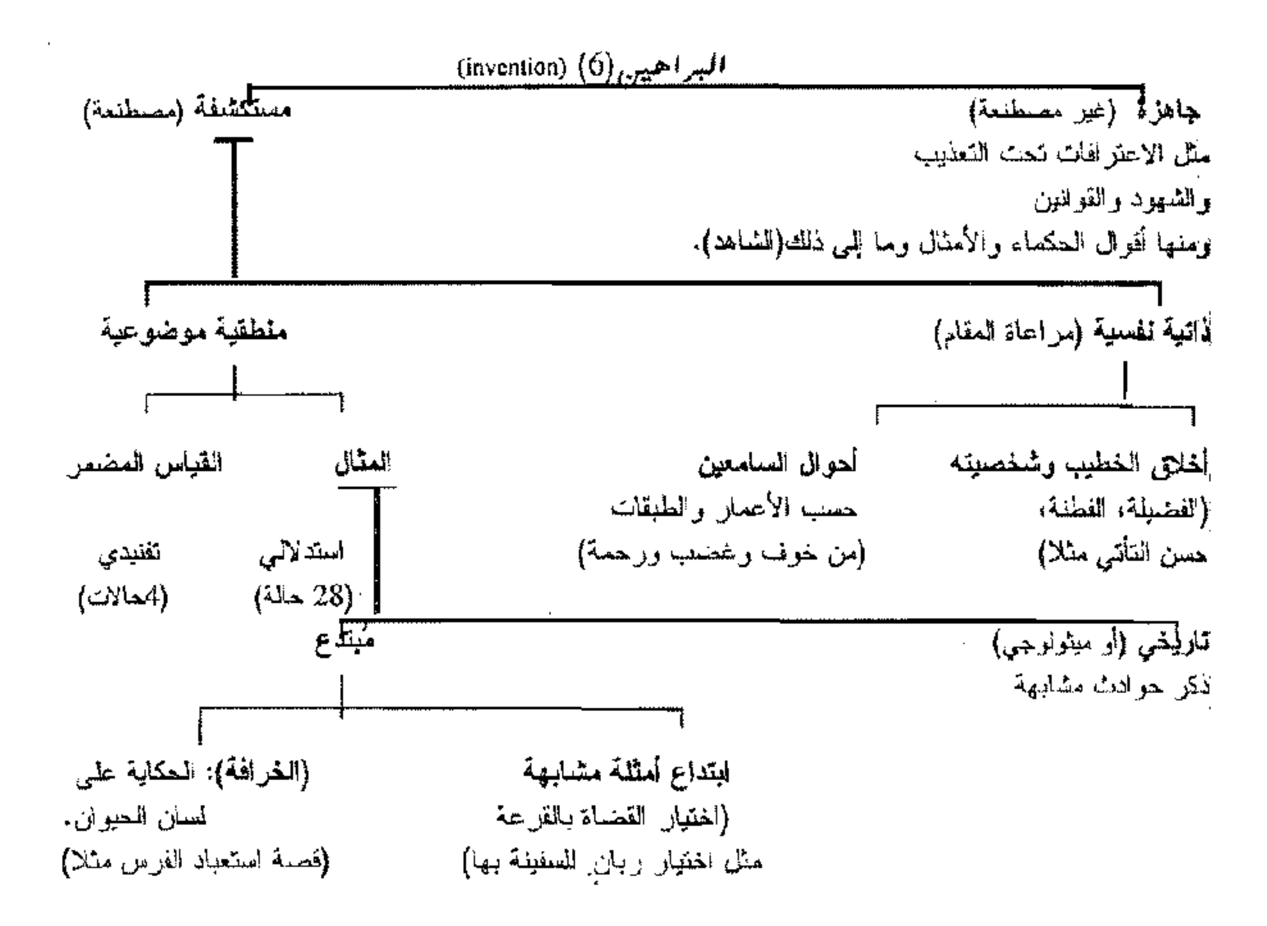
وطلباً للإيجاز نستعين بالخطاطة التالية لبيان أنواع البراهين والحجج الخطابية.[انظر الصفحة 25].

وقد يسهل القول أن الخطابة العربية هي خطابة مُنافَرة ومُفاخرَة ميالة إلى المدح والهجاء، ولم تعتمد الحوار الهادئ القائم على الحجة إلا في مناسبات محدودة، ولذلك يُنتظر أن يكون عنصر الحجاج والبرهنة أضعفَ عناصرِ بنائها، غيرَ أنه ينبغي أن ينظر إلى القضية حسب المقامات والموضوعات المتناولة.

---

[1] - الخطابة لأرسطو 29-30. (ترجمة عبد الرحمن بدوي1980). قال عبد الرحمن بدوي معلقا على المتن: "لما كانت الخطابة تبحث في الأفعال والأخلاق والفضائل والانفعالات فإنها وثيقة الصلة بعلم السياسة، وبالتالي: بعلم الأخلاق، ذلك لأن السياسة والأخلاق تبحثان في موضوع واحد من وجهتي نظر مختلفين: إذ كلتاهما تبحث في العادة والفضيلة: الأولى في الدولة، والثانية في الفرد. (المترجم)

[2] - الخطابة لأرسطو 193. (ترجمة عبد الرحمن بدوي1980).



البراهين (6) (invention)
جاهزة (غير مصطنعة)
مثل الاعترافات تحت التعذيب
والشهود والقوانين
ومنها أقوال الحكماء والأمثال وما إلى ذلك(الشاهد).
مستكشفة (مصطنعة)
ذاتية نفسية (مراعاة المقام)
منطقية موضوعية
أخلاق الخطيب وشخصيته
(الفضيلة، الفطنة،
حسن التأتي مثلا)
أحوال السامعين
حسب الأعمار والطبقات
(من خوف وغضب ورحمة)
المثال
القياس المضمر
استدلالي
(28 حالة)
تفنيدي
(4حالات)
تاريخي (أو ميثولوجي)
ذكر حوادث مشابهة
مبتدع
ابتداع أمثلة مشابهة
(اختيار القضاة بالقرعة
مثل اختيار ربان السفينة بها)
(الخرافة): الحكاية على
لسان الحيوان.
(قصة استعباد الفرس مثلا)

الفصل الثاني

مقام الخطاب
في القرن الأول الهجري

مدخل نظري

يرى أرسطو أن الخطيب الذي تتوفر فيه الفضيلةُ والفطنةُ والتلطف للسامعين "يوحي بالثقة إلى من يسمعونه"[1]، و"المعرفة بالمتكلم أيُّ امرئ هو تعينُ بزيادة عند التشاور"[2]، أي في الخطابة الاستشارية.

فيجب على الخطيب أن يعرف الأحوالَ العاطفية لمستمعيه، من غضب ورحمة وخوف، وما يصحبها من لذة وألم حسب الأعمار والطبقات، حتى يمكنه الوصول إلى قناعاتهم. قال: "لما كان الحكم هو موضوعَ الخطابة ـ لأن الأحكام تصدر في الخطابة المشاورية، والقرارات القضائية حكم ـ فليس من الضروري فقط أن ننظر كيف نجعلالخطبة نفسها برهانية ومقنعة، بل من الضروري أيضا أن يُظهر الخطيب نفسه أنه على خلق معين، وأن يعرف كيف يضع القاضي في حالة نفسية معينة، لن هذه ميزة طبيرة فيما يتعلق بالإقناع، خصوصا في الخطابة البرهانية، ثم في المقام الثاني بعدها في الخطابة المشاجرية (القضائية) ـ في أن يبدو الخطيب مالكا لبعض الخصال المعينة، وأن يظن السامعون أنه متهيئ على نحو ما تجاههم، وأيضا أن يكونوا هم متهيئين نحومعين"[3].

---

[1] ـ الخطابة الكتاب 2 الفصل1.

[2] ـ الخطابة (تحقيق بدوي) ص8.

[3] ـ الخطابة لأرسطو (ترجمة بدوي) 102. وانظر تعليق المترجم على انسجام

وقد اهتم البلاغيون العرب بمقتضى الحال، وهو مدارُ الحديث في صحيفة بشر بن المعتمر التي رأى فيها بديلا لدروس إبراهيم بن جَبلة السكوني في تعليم الخطابة، وترددت هذه الآراء مع الزيادة والنقص في مؤلفات البلاغيين بعده مثل البرهان في وجوه البيان لابن وهب وغيره من كُتب نقد الشعر والفلسفة.

ونضع بين يدي القارئ جُملة من هذه الآراء بنصها ليتأملها مباشرة. فمنها مما يتعلق بأحوال المستمعين قول بشر بن المعتمر[1]:

1 ـ "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحَال وما يجب لكل مقام من المقال. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تُفهمَ العامةَ معانيَ الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي تلطف على الدهماء، ولا تجفو على الأكفاء، فأنت البليغ التام"[2].

2 ـ "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدارَ الكلام على أقدار

كلام أرسطو هناك.

[1] ـ خصَّصنا لبلاغة الإقناع عند الجاحظ في البيان والتبيين الفصلَ الرابعَ من القسم الأول من كتابنا: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، بعنوان: "البلاغة والمعرفة، من البيان إلى البلاغة". ص 189-216). وهي خلاصة مركزة غرضها كشف الاستراتيجية الإقناعية للكتاب.

[2] ـ البيان والتبيين 136/1 (هرون)

المعاني، ويقسم أقدارَ المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيبُ متكلما تَجَنَّب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبَّر عن شيء من صناعة الكلام، واصفا أو مجيبا أو سائلا، كان أولَى الألفاظ به ألفاظُ المتكلمين"[1].

وقد تُخرقُ هذه القاعدة "، في الخطاب عامة، على وجه التظرُّف والتملُّح، كقول أبي نواس:

وذاتِ خــدٍّ مُــورَّدِ	قُوهِيَــةِ المُتَجَــرَّدْ
تَــأمَّلُ العَيْــنُ منهــا	محاسـناً ليـس تَنفَـدْ
فبعضُهــا قــدْ تَنــاهى	وَبَعْضُهَــا يَتَولَّــدْ
والحُسنُ فِي كُلِّ عُضْوٍ	منهـا مُعـادٌ مُــرَدَّدْ"

ويرى، بعد ذلك، أن اللفظَ العاميَّ الوحشيَّ يوافقُ البدويَّ الأعرابي: "فإن الوَحشي من الكلام يفهمُه الوحشيُّ من الناس، كما يفهم السوقي رطانةَ السوقي، وكلامُ الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسَهم في طبقات[2].

أما فيما يخص الخطيب فإنه يُستحسَنُ من بعض الناسْ ما لا يُستحسن من غيرهم، فـ "اللَّحنُ من الجواري الظِّراف، ومن الكواعب النواهدِ.. أيسرُ. وربما استَملَحَ الرجلُ ذلك منهن، ما لم تكن الجاريةُ صاحبةَ تكلف.. فإذا أسنَّتْ واكتهلتْ تغيَّرَ ذلك الاستملاحُ"[3].

---

[1] ـ نفسه 1/138-139.
[2] ـ البيان 1/144.
[3] ـ البيان 1/146.

ولمُلاءمة الكلام لشخصية الخطيب نصحوا بأن يُحتفظ للنّادرة بلغتها وألا يدخل عليها أي تحسين في الإعراب أو اللفظ أو التلفظ[1].

ومن أهم القضايا التي ارتبطت عندهم بأحوال المستمعين والخطباء قضية الإيجاز والإطناب، كما تعرض الفلاسفة والمفسرون لعلاقة البراهين في القرآن بأحوال السامعين.

جاء في البيان والتبيين: "وجملةُ القول في التردادِ أنه ليس فيه حد يُنتهى إليه، ولا يُؤتى على وَصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص" وفي القرآن تَردادٌ لذكر الجنة والنار وقصة موسى وهود "لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم غبي غافل، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب"[2].

وحبذ ابن المقفع الإيجاز إلا في "الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطَلٍ، والإطالة في غير إملال"[3].

ومن المشهورين بالإطالة في الحَملات والصفح والاحتمال النخار بن أوس العذري. إذ كان يراعي المقام، فـ "ربما ردّدَ الكلامَ عن طريق التهويلِ والتخويف"[4].

أما الخطباء الذين تستحسن منهم الإطالة فالذين لهم مكانة الرضا

---

[1] ـ نفسه.

[2] ـ نفسه 105/1.

[3] ـ البيان 116/1.

[4] ـ نفسه 105/1.

والقَبول في نفوس المستمعين مثل الرؤساء والأئمة ومن يُقتدَى بهم[1]، كما تستحسنُ إطالة المقتدرين الذين تُؤَمن زَلاّتُهم، أما من دونهم، فالإيجاز أجدر بهم. ونصحوا الخطيب بمراقبة أحوال المستمعين والاستجابة لما يقرؤه في عيونهم من استحسان أو استثقال.

وبرغم ميل العرب إلى الإيجاز في الخطابة وفي الرسائل كذلك حتى كان من يكتفي منهم بجملة أو مَثَل، كما في التوقيعات، فإنهم مدحوا تطويل المقتدرين في مكانه المناسب، والإيجاز في مكانه، كما نلاحظ في قول الشاعر:

يَرمُون بالخُطَبِ القِصار وتارةً وحْيَ المَلاحظِ خِيفةَ الرُّقباء

"فَمَدَح، كما ترى، الإطالةَ في موضعها والحَذف في موضعه"[2].

وعلى ضوء مراعاة مُقتضى الحال صنفت البلاغةُ العربية، فيما بعد، المخاطَبين الذين يُلقى إليهم الخبر إلى ثلاثة أصناف:

1 ـ مُخاطَب خالي الذهن.
2 ـ ومُخاطَب شاك متردد.
3 ـ ومُخاطَب جاحدٌ منكرٌ.

وتتصاعد درجة تأكيد الخِطاب حسب هذا الترتيب. وقد يوضع كل واحد منهم مكانَ الآخر حسبَ المُلابسات التي يُحدِّدها المقام.

وقد أدت دراسة الخطاب حسب أحوال الجمهور إلى الاختلاف بين

---

[1] ـ البرهان في وجوه البيان.
[2] ـ البيان 155/1.

دارسي الخطاب القرآني من الفلاسفة المتأثرين بالفلسفة اليونانية، والسلفيين (الأصوليين) المسلمين. نجدُ أصداءَ هذا الاختلاف بيناً في رد ابن القيم على ما جاء في (فصل المقال) لابن رشد، ونورد هنا بعضَ كلامِ ابن رشد وردَّ ابن القيم عليه. قال ابن رشد في كتابه (فصل المقال):

"لما كان مقصودُ الشرع تعليمَ الحق والعمل الحقّ، كان التعليمُ صنفين؛ تصوراً وتصديقاً، كما بين ذلك أهلُ العِلم بالكلام، وكانت طرقُ التصديق الموجودةُ للناس ثلاثاً: البُرهانية، والجدلية، والخطابية، وطرق التصور اثنين: إما الشيءُ نفسُه وإما مِثالُه، وكان الناس كلُّهم ليس في طباعهم أن يقبلوا البراهينَ ولا الأقاويلَ الجدليةَ، فضلاً عن البرهانية، مع ما في تعليم الأقاويل البرهانية من العُسر، والحاجة في ذلك إلى طول الزمان لمن هو أهلٌ لتعلمها، وكان الشرع إنما مقصوده تعليم الجميع، وجبَ أن يكون الشرعُ يشتملُ على جميعِ أنحاءِ طُرق التصديقِ وأنحاءِ طرقِ التصوُرِ"[1].

"ولما كانت طرق التصديق منها ما هي عامةٌ لأكثر الناس - أعني وقوع التصديق من قِبلها - وهي الخطابية - والخطابية أعم من الجدلية - ومنها ما هي خاصة لأقل الناس وهي البرهانية، وكان الشرع مقصودُه الأولُ العناية بالأكثر من غير إغفالِ تنبيه الخواص، كانت الطرق المُصرَّحُ بها في الشريعة هي الطرق المشتركة للأكثر في وقوع التصور والتصديق"[2].

---

[1] - فصل المقال 50 دار الشروق.

[2] - فصل المقال 50-51.

فـَ "الناس في الشريعة على ثلاثة أصناف: صنف ليس هو من أهل التأويل أصلا، وهم الخطابيون الذين هم الجمهور الغالب. وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل يَعْرَى من هذا النوع من التصديق. وصنفٌ هو من أهل التأويل الجدلي، وهؤلاء هم الجدليون بالطبع فقط أو بالطبع والعادة. وصنف هو من أهل التأويل اليقيني، وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة أعني صناعة الحكمة"[1].

وكانت هذه الآراء جديرة بأن تثير رد فعل عنيف من الأصوليين الإسلاميين الذين رأوا فيها انصياعاً للفلسفة اليونانية، يقول ابن القيم:

"ويظن جُهالُ المنطقيين، وفروخُ اليونان أن الشريعةَ خطاب للجمهور، ولا احتجاج فيها، وأن الأنبياء دَعَوا الجمهورَ بطريق الخطابة. والحججُ للخواص، وهم أهل البرهان، يَعنون أنفسهم، ومن سلك طريقهم. وكل هذا من جهلهم بالقرآن، فإن القرآن مملوء بالحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمَعاد"[2].

الأُسُسُ المقامية لتصنيفِ الخطابِ

وقد اعتمد أرسطو في تصنيفه للخطابة اليونانية على حال المُتلقي الذي اعتبره حكما، ثم نظر، بعد ذلك، إلى القضايا المحكوم فيها. ونَصُّ كلامه في ذلك، حسب الترجمة العربية القديمة:

---

[1] ـ نفسه 52.

[2] ـ ابن القيم، مفتاح السعادة 220/1 ونقله في (الجدل في القرآن) 244.

"أنواع[1] الخطابة ثلاثة تتناسب مع السامعين، لأن كل خطبة تتألف من ثلاثة عناصر: الخطيب، والموضوع الذي يتناوله، والشخص الذي يوجه إليه الخطاب ـ أعني السامع الذي إليه يحيل الغاية أو الهدف من الخطبة. أما السامع فهو بالضرورة مجرد مشاهد أو قاضٍ، والقاضي إما أن يحكم على الأمور الماضية أو على الأمور المقبلة. فمثلا العضو في جمعية عمومية هو حاكم (قاض) على الأمور المقبلة، والقاضي يقضي في الأمور الماضية، والمشاهد يحكم على مهارة الخطيب. ولهذا كان هناك بالضرورة ثلاثة أنواع من الخطب: المشورية، والمشاجرية، والبرهانية"[2].

وهذا التصنيف تترتب عنه نتائج أخرى فيما يخص بناء الخطب من حيث البراهين والأسلوب وتنظيم القول، لخصها رولان بارث في الجدول التالي[3].

[1] ـ في النص العربي "قد توجد أنواع.." وفي النص الفرنسي ما ترجمته: "أنواع الخطابة ثلاثة" ترجمة Dufour ص83/1.

[2] ـ الخطابة لأرسطو (ترجمة بدوي) 36–37.

[3] ـ بارث Barthes في Communication 16 p. 210

النوع	المستمعون	الغرض	الموضوع	الزمن	التفكير (الغالب)	الأفكار العامة
الاستشارية	أعضاء المجلس	- النصح - وعدم النصح	النفع والضرر	المستقبل	المثال	المحتمل وغير المحتمل
القضائية	القضاة	الاتهام والدفاع	العدل والظلم	لماضي	القياس المضمر	الحقيقي وغير الحقيقي
الاحتفالية	المتفرجون الجمهور	المدح والذم	الجمال والقبح	الحاضر	تمثيل واستقراء ومقارنات[1]	الأقل والأكثر

[1] - استقراءات متنوعة وتمثيل موجه لتمجيد الممدوح بواسطة مقارنات ضمنية. (بارث)

وقد سار الدارسون العرب في دراستهم للخطابة انطلاقاً من تصنيفها حسب موضوعاتها إلى سياسية ودينية واجتماعية، وهذا التصنيف قديم كما تقدم من كلام الحسن بن وهب، والعسكري.

غير أن هذا التصنيف يمكن أن يُنتقدَ من عدة جهات أهمها صعوبةُ التفريق في المجتمع الإسلامي الأول بين ما هو سياسي وما هو ديني واجتماعي، لِطبيعة الإسلام الذي لا يفرق بين الدين والدولة، ثم إن العلاقات الاجتماعية هي في غالب الأحيان علاقات دينية، وقد أدى هذا إلى الخلط حين تكون المناسبة من طبيعة، والمحتوى من طبيعة مخالفة. فكثير من الخطب والرسائل التي دعيت اجتماعية أو إخوانية يمكن اعتبارها دينية وعظية وتعليمية.

وبعض خطب الوفود التي اعتبرت سياسية لا تعدو وصفَ البلاد، فهل ننظر إلى منطوقها وبنائها، أم إلى مفهومها والغرض البعيد الذي يتوخاه الخطيب، كخطبة الأحنف عند عمر بن الخطاب؟

1 ـ مقامات الخطابة الدينية

إن هذه الصعوبات والعيوب لن تصدنا عن البحث في طبيعة الخطاب الديني والسياسي والاجتماعي، وذلك لارتباط ظهور هذه الأصناف وتطورها بتطور المجتمع العربي الإسلامي، وسنحاول ما أمكن ذلك الربط بأحوال المخاطبين. فيمكن تقسيم الخطابة الدينية إلى ثلاثة أصناف وذلك حسب المتلقي وحسب الرسالة الموجهة إليه. فهو

إما أن يكون خالي الذهن يتقبل المعرفة الملقاة إليه وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية، وإما أن يكون متناسيا لما تعلم غافلاً عما ينتظره فيتطلب حاله الحث على العمل والتخويف من العقاب وتلك هي الخطابة الوعظية. وإما أن يكون عالما مخالفا وجاحدا لوجهة نظر الخطيب وفي هذه الحالة لابد من المحاجة، والبرهنة وتلك الخطابة الحجاجية أو المناظرات.

1.1 - مقام التعليم

ويفترض أن يكون المرسل والمتلقي فيها في حالة عَطاء وتقبل، فإن تحقق ذلك كان الخطاب ابتدائياً (منطقا وأسلوبا)، وذلك أظهر في الرسائل منه في الخطب، وإذا ما أحاطت بالخطيب ظروف خاصة صاحبت الابتدالية عناصر تأكيد وإقناع، فصارت الخطبة تتراوح بين الإخبار والتأكيد الإنشائي، وهذا هو الطابع الغالب عليها. وقلما بحثت هذه الخطابة عن عناصر المنطق والحِجاج أو اهتمت بتجميل الأسلوب. بل تستثمر عناصر التأكيد والأمر والنهي والعرض وغيرها من أدوات الجملة الإنشائية.

ومن للخطب التعليمية التقريرية وصِية أبي بكر لأسامة وجيشه:

"يأيها الناسُ، قِفوا أُوصيكُم بعشرٍ، فَاحفَظوها عَنّي: لا تَخونوا، ولا تَغلُّوا، ولا تَغدِرُوا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا طِفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تقعَرُوا نَخلاً ولا تُحرقُوه، ولا تقطعُوا شجرةً مُثمرةً، ولا تذبحوا شاةً، ولا بقرة ولا بعيراً إلا لِمَأكَلَةٍ، وسوفَ تَمرُّون

بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامعِ فدعُوهم وما فرّغوا أنفسهم لهُ، وسوف تَقْدَمُون علَى قوم يأتونَكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها، وتَلْقَونَ أقواماً قد فحصزا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولَها مثل العصائب، فاخفِقُوهم بالسيِ خفقاً، اندفعوا باسم الله"[1].

لقد قَصَرَ أبو بكر اهتمامه في إحصاء الأوامر والنواهي، ولم يكن، وهو الإمام، في حاجة أن يجادل أو يدافع عن أوامرَ ونواه إسلامية أمام جيش مسلم في طريقه للدفاع عن أرض الإسلام، فقصارى ما يريد أن يُعلِّم غير العالم، وأن ينبه الغافلَ، وأن يبرئ ذمته إزاءهم..

أما الرسول (ص) في خطبته في حجة الوداع فقد وضع مخاطبيه فيما يبدو موضع التردد والشك، إن لم يكن الجحودَ، وذلك لما توقعه من اضطراب أحوالهم بعده، "فلا تَرْجِعُنَّ بَعدي كُفاراً يَضْرِبُ بَعضُكُمْ رِقابَ بعضٍ".

فالخطبة جاءت بعد أن أكمِلَ للناسِ دينَهم لتَقررٌ بعضَ المبادئ التي لاحظ الرسول، دون شك، حاجةً إلى تأكيدها والإشهادِ عليها قبل أن يُودعَ القوم. فقال بعد الحمد:

"أما بعدُ، أيها الناسُ! اِسْمَعُوا مني أُبَيِّنْ لكُم، فإني لا أدري لعلِّي لا ألقاكُم بعدَ عامي هذا في موقفي هذا.

أيها النَاسُ، إن دماءَكم وأموالَكُم حرامٌ عليكم، إلى أن تَلقوا ربَّكم

---

[1] - جمهرة خطب العرب 187/1. غَلَّ، يَغُلُّ: خان. وغل يغِلُّ: حقد. قَعر النخلة: قطع جذرها فسقطت.

حرمةِ يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ألاَ هَلْ بلَّغتُ، اللهم فاشهد".

وتتكرر هذه اللازمة: "ألا هل بلغتُ اللهم فاشهد"، في نهاية كل فقرة، متجاوبة مع النداء والتوكيد: "أيها الناس إن.."، في أول الفقرات.

وقلّما سَلَك الخطباءُ في الخطابة التعليمية طريقَ السَّردِ البارد للأحكام، بل لجأوا إلى التأكيد والحَثّ على العمل.. وبذلك تقتربُ الخطابة التعليمية من الوعظية[1].

وقد سادت هذه الخطابة في الصدر الأول، ثم عم الإسلام وأخذت الخطابة الوعظية الصدارة دون أن تتوقف الخطابة التعليمية عن أداء مهمتها خاصة في المساجد.

ونظرا لأهمية هذه الخطابة في التعريف بالدعوة والحث على التمسك بها قرنت الخطابة بالشعائر الدينية واتخذت لها منابر في المساجد إلى جانب المحاريب منذ العهد الأول.

1. 2 ـ مقام الوعظ

بخلاف حال المستمع في الخطابة التعليمية فالمستمع في الخطابة الوعظية مَوضوعٌ موضعَ الغافلِ المقصر فيما يجب عليه. "والقابل

---

[1] ـ يمكن الاستشهاد هنا ببعض الآيات القرآنية التعليمية الصرف، المتعلقة بالميراث مثلا "يوصيكم الله في أولادكم الذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك..." (سورة النساء)

الذي عنده نوع من غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمرُ والنهي المقرون بالترغيب والترهيب"[1]. ولاشك أن هذه الغفلة قد اختلفت بين العصر الأول الذي كان المسلمون مُنشغلين فيه بالإسلام، (كان الإسلام كله طرفاً في الصراع)، وبين العصر الأموي عصر الأحزاب والانشغال بالصراع (الدنيوي) التاريخي، كما أن الخطيب في العصر الأول كان أميلَ إلى الهدوء لاندماجه في المجتمع وفعاليته فيه: خليفة كان أو قائدَ جند أو ما إلى ذلك. أما في العصر الأموي فربما أحس الواعظُ الذي أصبح لا يمارس إلا هذه السّلطة إفلات المستمع من قبضته فاعتبره مُنكراً أو مُتنكراً.

لذلك قامَ الوعظُ في أول الأمر على المزاوجة بين الوعدِ والوعيدِ كما هو الشأن في بعضِ مواعظ علي بن أبي طالب الذي يذكّر بعذاب الآخرة حتى إذا رأى تَغيُّرَ أحوالِ مستمعيه وخوفهم ذكّرهم بالنعيم..

غير أن الخطابة الوعظية لم تحتفظ على هذا التوازن إذ ما إن توسعت الإمبراطورية الإسلامية وتغلب الاتجاه إلى الحياة وشؤونها حتى ظهر رد فعل طائفةٍ من العباد مالوا إلى التقشف والنقمة على الحياة وروادها، فأصبحت العلاقة بين المرسل والمتلقي متوترة يسودها الاتهام ويطبعها التشاؤم.

وقد تغذت نزعةُ التشاؤم هذه بما أصابَ الشيعة والخوارجَ من نَكبات وقتل[2]، كما يُفترضُ أن تساهم في تقويتها عند هؤلاء الوعاظ

[1] ـ ابن القيم 344. والجدل في القرآن 243.

[2] ـ وهذا طابع غلب على شعر شعرائهم كذلك خاصة المتأخرين منهم، مثل دعبل صاحب التائية التي صورت مأساة آل البيت التي يقول بها:

والقصاص ذوي الثقافة المتنوعة عناصرُ مسيحيةٌ تتعلق بخطيئة الإنسان، هذه العناصر التي يفترض تسربها إلى الثقافة العربية في ذلك العصر.

وبذلك أصبح المعنى المُلِحُ على الخطباء،، والفكرةُ الجوهرية في خطبهم هي زوال الدنيا وخِداعها، وبقاءُ الآخرة وضرورة التزود منها، مع الإكثار من ذكر فساد أحوال الناس،، والتذكير بأحوال الأمم الماضية.

فمن خُطب الحسن البصري: "يا ابْنَ آدم، بِعْ دنياكَ بآخرتك تربحْهُما جميعاً، ولا تَبعْ آخرتك بدُنياك فتخسَرَهما جميعاً. يا ابن آدم، إذا رأيتَ الناس في الخير فنافسْهُم فيه، وإذا رأيتهم في الشر فلا تَغبطْهم عليه، الثَّواءُ هاهُنا قليلٌ، والبقاءُ هناك طويلٌ، أمتكُم خيرُ الأمم، وأنتم آخر أمتكم، وقد أُسْرِعَ بخيارِكم فماذا تنتظرون؟..."[1].

وقد استغلَّ خطباءُ السياسة العاطفةَ الدينيةَ عند مستمعيهم فربطوا الطاعةَ السياسيةَ بالطاعة الدينية، وجعلوا الإخلاصَ فيهما واحِداً، ولبسوا لباس الوعاظ. فقد نُسب للحسن البصرري أنه قال في الحجاج: " ألا تعْجبونَ من هذا الفاجرِ يرقى عتباتِ المنبر فيتكلم كلامَ الأنبياء، وينزل فيفتك فتكَ الجبارين. يوافقُ اللهَ في قوله، ويخالفُه في فعله"[2].

مَدارسُ آياتٍ خلَتْ من تِلاوَةٍ	ومنزلُ وحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ
.. بَناتُ زيادٍ في القصور مَصونةٌ	وآلُ رسُولِ اللهِ في الفَلَواتِ

(شعر دعبل 78، 86)

[1] ـ جمهرة خطب العرب 485/2.
[2] ـ الجمهرة 301/2 عن شرح ابن أبي الحديد.

هذا والحالُ أن بني أميةَ كانوا "يقفون، في الغالب، موقفَ المُعارض للاتجاه الزهدي عامة لأنه كان يرتدي طابع السخط على السلطة القائمة"[1] .

1. 3 ـ مقام المناظرات المذهبية

إن المخاطبَ في المناظرات ينتمي إلى الصنف الثالث من المخاطبين حسب تصنيف ابن رشد، أي أنه من المقتدرين على التأويل الذي يتطلب إقناعهم بَرْهَنَةٍ (وحكمة). وهو من جهة أخرى موضوعٌ موضعَ المنكر الجاحد، حسب تصنيف البلاغة العربية لمن يلقى إليهم الخبر، فاقتضى الأمر أن يعتمد على الحُجج العقلية والنقلية حسب نوع الثقافة والأيديولوجية التي يحملها المخاطب: المَيلُ إلى العقل والمنطق الصرف، أو توظيفه في تأويل النصوص الدينية واستثمارَ الوقائع. غير أن هذه المناظرات لم تكن في أول نشأتها خالية من تدخل عناصر غير عقلية إقناعية تصل أحيانا إلى حدود التعسف والاحتيال، ومن ذلك مناظرةٌ عقدها هشام ابن عبد الملك، لغرض في نفسه، بين الأوزاعي العالم السني (157هـ) وبين غيلان الدمشقي الذي يُعتبرُ من أوائل المتكلمين في قضية القدر، وقد بدأها الأوزاعي بقوله:

ـ أسألُك عن خمسٍ، أو عن ثَلاثٍ؟

قال غيلان: عن ثلاث؟

فقال الأوزاعي: هل عَلمتَ أنَّ الله أعانَ على ما حرَّم؟

قال غيلان: ما عَلمتُ، وعظُمت عنده.

---

[1] ـ إحسان النص. الخطابة العربية 90.

قـــال: فهل علمتَ أن الله قضى على ما نهى؟

قال غيلان: هذه أعظمُ، مالي بهذا من علم.

قـــال: فهل علمتَ أن الله حال دون ما أمر؟

قال غيلان: حال دون ما أمر؟ ما علمتُ.

قال الأوزاعي: هذا مرتابٌ، من أهل الزيغ!

فأمر هشام بقطع يده ورجله"[1].

وكان جواب الأوزاعي عن هذه الألغاز المغرضة:

"نعم قضى على ما نهى عنه: نهى، آدم عن أكل الشجرة، وقضى عليه بأكلها. وحال دون ما أمر: أمر إبليس بالسجود لآدم، وحال بينه وبين ذلك. وأعان على ما حرَّم، حرم الميتة، وأعان المضطر على أكلها".

فلا شك أن المناظرة هنا لم تستهدف الإقناعَ بل الإيقاعَ والإدانة، فكيفما كان جواب غيلان ستكون هناك إمكانية لإدانته. ما دام الطرف الثاني خصماً وحكماً.

وقد يلجأ المتناظرون إلى بتر الشاهد أو تحريفه فضلاً عن فتح المجال للتأويلات البعيدة، وهذا يدل بدوره على سوء طوية المحاور ويثير الطرف الثاني ليجعل رد الفعل عنيفاً. فقد "بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلاناً وفلاناً نطقا في القدر فأرسلَ إليهما،

قال: ما الأمرُ الذي تنطقان به؟[2]

فقالا: هو ما قال اللهُ، يا أمير المؤمنين.

---

[1] - العقد الفريد 193/2. (ت :م.س. العريان).

[2] - سرح العيون 184.

قال: ما قال اللهُ؟

قالا: "هلْ أتى على الإنسانِ حينٌ من الدهرِ، لم يكُن شيئاً مَذكوراً". ثم قال: "إنّا هديْناه السبيلَ، إما شاكراً وإما كَفُورا". ثم سكتا.

فقال عمر: اقرآ. فقرآ حتى بلغا: "إنّ هذه تذْكِرةٌ، فمن شاءَ اتخذَ إلى ربه سبيلا، وما تشاؤون إلا أن يشاءَ اللهُ"، إلى آخر السورة.

فقال: كيف تريان يا ابني الأتانة! تأخذان الفُروع وتَدعانِ الأصول".

وسنعرض في حديثنا عن البراهين الموضوعية لأنواع البراهين التي اعتمدتها المناظرات والخطابة عامة في العصر الأموي.

وما تقدم يدل على أن العلاقة بين المتناظرين في الخطابة الدينية لم تكنْ بين الأنداد، بل كان أحدُ طرفيها، في غالب الأحيان، مدعماً باعتبارات غير علمية، وأكثر ما تكون سياسية، سواء كان المناظرُ رجلَ سُلطة، مثل عمر بن عبد العزيز، أو من الموالين لها، مثل الأوزاعي في المناظرة السالفة[1]. على أن هذا لا ينفي وجود مُحاوراتٍ بين عُلماء هدفُ كل منهم البحثُ عن الحقيقة، والانتصار للمذهب الذي يتبناه العالمُ دون اللجوء إلى وسائل أخرى ترجح كفةً على أخرى، كمناظرة عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء في مجلس الحسن البصري، حول مرتكب الكبيرة، وقد انتهت باقتناع عمرو بن

---

[1] ـ كانت مواقف الخلفاء الأمويين المتكلمين في القضاء والقدر والجبر مختلفة. ويرى خليل الزرو "أن بعض الخلفاء الأمويين قد اعتنقوا القدر، وبعضهم اعتنق الجبر عندما آمنوا بأفكارهما، فالخليفة يزيد بن الوليد اعتنق القدر، وقرب أصحابه، واعتنق مروان بن محمد الجبر، واتبع الجعدَ بنَ درهم حتى لُقب بمروان الجعدي" الحياة العلمية في الشام في القرن 1-2 هـ ص151 و29 ـ 124.

عبيد برأي واصل ومفارقته للحسن البصري.

غير أن المناظرات المذهبية "لم يقدر لها أن تزدهر وترتقيَ إلا في العصر العباسي الذي نضَجت فيه الحركة الفكرية وترجمت فيه آثار الفلاسفة اليونان وغيرهم ونشطت فيه المذاهب الكلامية"[1].

أما في النشأة، فالملاحظ أن بيئة الوعظ والقصص الديني هي التي هيأت الخطابة والرسائل أيضا للمناظرة في القضايا الدينية المذهبية، مثل مشكلة حرية الإرادة وصفات الله وغير ذلك من القضايا التي تبلورت عنها مواقف مختلفة فظهرت في هذا العصر فرقة القدرية والجبرية والمرجئة، هذه الفرق التي تلاشت مع الأيام وابتلعتها فرقة المعتزلة.

فالحسن البصري الذي يُعتبر شيخ الخطباء الوعاظ في عصره، هو أيضا من أوائل من خاضوا بنثرهم موضوعَ المحاجة المذهبية، وهو يؤرخ لبداية الخوض في القضايا المذهبية في رسالة موجهة إلى عبد الملك على يد الحجاج جاء فيها:

"وقد أدركْنا، يا أميرَ المؤمنين، السلفَ الذين عمِلوا بأمرِ الله، ورَوَوا حكمتَه، واستَنّوا بسنةِ رسولِه، فكانوا لا يُنكرونَ حقّاً، ولا يُحِقون باطلاً، ولا يُلحقون بالرّب تباركَ وتعالى إلا ما ألحَقَ بنفسه،

---

[1] ـ إحسان النص. الخطابة العربية 215 وكانت في الشام كنائس وأديرة قبل الإسلام، وكانت للمسيحيين فيها ثقافة دينية فلسفية، فاتصل بهم المسلمون وأفادوا من الحوار معهم (انظر الزرو الحياة العلمية في الشام).

وإنما أحدثنا هذا الكلام فيه، لَمَّا أحدثَ الناس النُّكِرةَ له"[1].

2 ـ مقامات الخطابة السياسية

يندرج في الخطابة السياسية:

1) جميع الخطب المتعلقة بالعمل في سبيل بناء الدولة أو بسْطِ نفوذها، أي حين تكون المواجهة بين المُسلم وغير المسلم.

2) خطب الصراع حول الخلافة والحكم داخل المجتمع الإسلامي.

الخطب المرتبطة ببناء الدولة كانت أولَ أمرِها أميلَ إلى الخطابة الدينية لطبيعة الدعوة الإسلامية. وهي تعليمية وتحميسية موجهة إلى الجنود الفاتحين في الغالب، وكانت الرسائل المتبادلة بين الخلفاء وقواد الجند هي الوسيلةَ الأولى المستعملةَ في علاج القضايا السياسية والعسكرية التي تهم سير الفتوح. وإنما برزت مَعالمُ الخطابة السياسية أولاً في الصراع حول الحكم، وكانت بذورها الأولى بعد موت الرسول مباشرة، يوم وقف الفرقاء في سقيفة بني ساعدة يحتج كل لأسبقيته في الخلافة بكل ما يبرر غرضه.. من قيم دينية واجتماعية[2]. واستؤنف هذا الحوار ـ بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب ـ في مَجلس الشورى، ثم بعد قتل عثمان وتَكوُّن الأحزاب السياسية حيث أصبحت معالمُ هذا الخطاب واضحةً. ويمكن تصنيف الخطابة

---

[1] ـ جمهرة رسائل العرب. 233/2.

[2] ـ انظر خبر يوم السقيفة في الطبري 218/3-220.

السياسية حسب العلاقة بين المتحاورين إلى صنفين كبيرين يضمان تصنيفات فرعية

2. 1. الحوار بين الأنداد

دار أغلب هذا الحوار حول قضية الخلافة وشؤونها، واعتمد النصح والمشاورات والمناظرات. ولم يكن هذا الصنفُ من الخطاب غريباً عن العرب في حياتهم الجاهلية، سواء في شؤون الحرب أو الرئاسة. وكانت لقريش دار للمشاورات في حالتي السلم والحرب يتحدث فيها الخطباء مدافعين عن وجهات نظرهم، ولذلك كان عادياً أن يعودوا إلى هذا التقليد بعد موت الرسول. غير أن الأمور ستأخذ مساراً آخر لاختلاف تركيبة المجتمع الإسلامي الجديد عن نظام القبيلة.

تحدث أبو بكر يوم السقيفة عن أسبقية المهاجرين وصبرهم في سبيل دينهم، ثم تحدث عن فضل الأنصار مُستعملاً المقياس الديني نفسَه، وراعى التوازن فاقترح حَلاً وسطاً: "فنحنُ الأمراءُ، وأنتمُ الوُزراء، لا تُفْتاتُون بمشورة، ولا تُقضى دونَكُم الأمور.."[1].

ولم يُرضِ اقتراحُ أبي بكر المستندُ على الأسبقية في الإسلام مُمثلَ الأنصار أو المتحدث باسمهم، فالتمس أساساً آخر للمفاضلة والتأثير في مُستمعٍ مُخضرَمِ الثقافة والتكوين الاجتماعي.

"يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أمركم، فإن الناسَ فيئُكم، وفي

[1] ـ الطبري 220/3.

ظلّكم، ولن يجترئ مُجترئٌ على خِلافِكم، ولـن يَصـدرَ النـاسُ إلا عن رَأيكُم، أنتمْ أهلُ العِز والثّروة، وأُولُوا العددِ والمنعة والتجربـة، وذَوُوا البأسِ والنجدة. وإنما تنظرُ الناسُ إلى ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسـد عليكم رأيكم، وينتقضَ عليكم أمركُم. فإن أَبَى هؤلاءِ إلا ما سمعتم فمنا أميرٌ ومنهم أمير"[1].

ومعلوم أن المخاطبين هنا من جمهور الأنصـارِ، وقد حـاولَ كل من الخطيبين أن يُثير عندهم عواطفَ معينـةً، وكـان الحُكم إليهم فـي نهاية المطاف..(؟)

والمناسبة الثانية للخطابة الاستشارية التي جلس فيها الفرقاء يستمع بعضُهم لبعض، وينطلق فيها الخطابُ من النّد للنّد كانت بعدَ قتل عمر بن الخطاب، حين انتهت الإقصائيات والتصفياتُ بين أعضـاءِ مجلس الشورى إلى ترشيح عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ولـم يكن الفصل بينهما سهلا، وخطب كل منهما محتجا لنفسه صراحة وضمنا فقال عثمان:

"الحمد لله الذي اتخذ محمداً نبيا، وبعثه رسولاً.. جعلنا الله بفضلـه أئمةً، وبطاعته أمراء لا يخرج أمرنـا منـا ولا يدخـل علينـا غيرنـا إلا من سَفِهَ الحق"[2]. وتكلم علي بن أبي طالب فاحتجَّ بالوراثـة والصـلاح والقوة: "الحمدُ لله الذي بعثَ محمداً مِنّا نبيا، وبعثه إلينا رسولا، فنحن بيتُ النبوة، ومعدنُ الحكمة، وأمانُ أهل الأرض، ونجاةٌ لمن طلب. لنا حقٌ إن نُعطه نـأخُذه، وإن نُمنعه نركبْ أعجـازَ الإبـل ولـو طـال

[1] ـ الطبري 220/2 والخطبة للحباب بن المنذر.
[2] ـ الطبري 235/4؟

السُرى"[1].

وقد طالَ السُرى فعلا، وركبت أعجازُ الإبل، وأصبحَ الحـوارُ بين بني هاشمٍ وبني أمية، بعد قتل عثمان[2]، مُتوتراً يقومُ على الفخر بالأب والجد، وتَحولّت الخطابةُ من المشاروة إلى المفاخرة.. قبل أن يُحكِمَ بنو أمية قبضتَهم على الحكم فيتحول مجرى الخطابِ.

وعند تكون الأحزاب السياسية صارت المخاطبات الاستشارية تتم داخل الأحزاب والجماعات المنسجمة كتشاور الخوارج في شأن عبد الله بن الزبير، وتشاور الشيعة حين عزم الحسين على السفر إلى الكوفة، وكانت المشاوراتُ داخل حركة التوّابينَ، بعد قتل الحسين، غالبة على الخطابة الشيعية. ومهما تكن الاستشارةُ مظهرية في قضية بيعة يزيد بن معاوية فإن الخطباء اصطنعوا لها لغةَ الخُطبِ الاستشارية، ومظهر فأبدوا رأيهم صراحة (الموالون)، وضمنا (الأحنف بن قيس خاصة) وحاولوا الدفاع عنه وتبريره. ولم يزد يزيد بن المقنع في خطبته حين قال:

"أمير المؤمنين هذا (وأشار إلى معاويةِ)، فإن هلك فهذا (وأشار إلى يزيد)، فمن أبى فهذا (وأشار إلى سفيه)"[3]،

على أن صرح بنهاية أغلب المشاورات بين الفرقاء في ذلك

---

[1] ـ الطبري 236/4.

[2] ـ لم نر، تجنبا للإطالة، أن نقف عند الخطب والكلمات المتبادلة بين عثمان والثوار الذين حاصروا الدار، ويمكن إدراج جانب منها في هذا السياق.

[3] ـ جمهرة خطب العرب 245/2.

العصر. وقد عبّر معاوية عن هذا الواقع بقوله له:

"اجلس فإنك سيد الخطباء".

والخطب السياسية الهادئة القائمة على الحجاج قليلة في الخطابة العربية وذلك أن العلاقة بين الأنداد أنفسهم كانت ميالة إلى حَسم الأمور بطرق أخرى غَير طرق الإقناع. ومع ذلك نجد نماذج للحوار الهادئ بين الخوارج والأطراف الأخرى. والأمر راجع في نظرنا إلى عدم مُطالبتهم بالخلافة، فكان محاورُوهم يتسامحون فيما سوى ذلك، أملا في إقناعهم بالحسنى وتقوية صفوفهم بقوة الخوارج ذات الاعتبار. فاتخذ الحوار معهم شكل المناظرة إذ ناظرهم ابن الزبير للزبيرية، وناظرهم علي وابن عباس للعلوية، وناظرهم عمر بن عبد العزيز لصالح الوحدة الإسلامية فأحرجَهم وأحرجوه.

وفي جميع هذه الأحوال نجد الخطباء يلجؤون إلى المنطق والحجة بعيداً عن التهديد والمدح والهجاء السائد في أصناف أخرى من الخطابة، كما أن هذه المناظرات لم تعتمد الزخرف أو تجميل الأسلوب لنفس السبب.

والوجه الآخر للخطابة بين الأنداد يقوم على المفاخرة والمدح والذم وذلك حين تكون القطيعة أكيدة، وتقتضي الظروف مع ذلك تبادل الخطب. ونجد أمثلة لذلك في المفاخرات بين الأمويين والهاشميين، والتي جرى بعضها في مجلس معاوية، وكان هو الضامنَ فيه لحرية التعبير[1]. وهذا لا يمكن أن يكون إلا استمرارا

[1] - جمهرة خطب العرب 2/19-31. عن شرح ابن أبي الحديد 2/101. ومن الراجح أن هذه المنافرات تعرضت لتدخل الرواة الشيعة، إن لم تكن موضوعة

للمنافرات التي عرفت في المجتمع الجاهلي.

2.2 ـ الحوار بين الراعي والرعية

ويمكن القول بأن هذا الحوار بدأ (يوم الدار) حين اتهم الثوار سياسة الخليفة، فحاول إقناعهم بدون جدوى، ثم وجه خطابا إلى الحجاج يدعوهم فيه إلى التدخل بينه وبين الثوار.. فالعلاقة بين عثمان وبين الثوار علاقة بين راع متمسك بأن تكون له الكلمة العليا الفصل، ورعية تنازعه هذا الحق وكان الوضع الذي يوجد فيه عثمان وقتئذٍ يفرض عليه أن يُلين خطابه، ويقبل النَّصَفَ في نفسه، ويخاطبهم مخاطبة النِّد للند، كما سبق. وهي التجربة نفسُها التي عاناها علي بن أبي طالب في حواره مع طائفة من جنوده الذين اتهموه بسوءِ التدبير، قبل أن يُكوِّنوا حزبًا مُستقلا (الخوارج)، على أن علي بن أبي طالب عَانى من علاقة أخرى مع جنده كانت وراء خُطبِه المشهورة وهي التخاذل، وإذا كان حوارُه للخوارج يتطلب الحجة والإقناع لاتهامهم لسياسته فإن حواره مع أهل العراق يتطلبُ التحميس وتحريك الهمم والإثارة العاطفية وقد برع في ذلك. والمعروف أن هذا التخاذل الذي أدى فيما أدى إليه إلى انهزام الشيعة وقتل زعمائهم خلق عند[1] أهل العرق إحساسا بالذنب جسدته حركة التوابين، وساهم في تعميق الهوة بين الخطيبِ الأموي، فيما بعد، وجمهوره من أهل الكوفة خاصة. وربما وقع نفس الشيء بينهم وبين أهل المدينة ومكة (الحجاز عامة). بعد استباحة المدينة وقتل ابن الزبير في مكة، لذلك قامت خطب بني أمية في المراحل الأولى على الاتهام والتهديد والوعيد. وهذا طابع

أصلا.

خطب الحجاج وزياد بن أبيه وغيرهما من الأمراء الأمويين الأوائل:
"فإياي وهذه الشُفعاءَ، الزَّرافاتِ والجماعات، وقالاً وقيلاً وما تقول؟ وفيمَ أنتم؟ وذاك؟.."[1].

"إني لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً مُتطاولة، رُؤوساً قد أينعت وحانَ قطافُها، وإني لصاحبها، وكأني أنظرُ إلى الدِّماء بين العمائمِ واللحي تترقرقُ"[2].

ثم حاول بعض خطباء بني أمية المتأخرين تحقيق مصالحة مع المخاطب باسترجاع نموذج الخطيب الديني السياسي، أو الإمام، وذلك بعد فشل الخطاب السياسي المباشر، فظهرت الوعود بالصلاح، وشرطُ الطاعة بالاستقامة وأداء الحقوق، وقد أقام يزيد بن عبد الملك ثورته على ابن عمه الوليد على ما اتهم به هذا الأخير من الانحراف عن الدين. وكان هذا الخطاب ميسوراً بالنسبة لخليفة زاهد مثل عمر بن عبد العزيز الذي تُذَكِّرُ خُطبُه بخطب الخلفاء الأوائل:

"أما بعد، أيها الناس، إنهُ ليس بعد نبيكم (ص) نبي، وليس بعد الكتاب الذي أُنزل عليه كتابٌ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلالٌ إلى يوم القيامة، وما حرَّمَ على لسان نبيه فهو حرامٌ إلى يوم القيامة، ألا إني لستُ بقاضٍ ولكني مُنفِّذٌ لله، ولستُ بمُبتدع، ولكني مُتَّبِع، ألا إنه ليس لأحدٍ أن يُطاعَ في مَعصيةِ الله عزَّ وجَل، ألا إني لستُ بخيرِكم، إنما أنا رجُلٌ منكم، غيرَ أن الله جعلني أثقَلَكُم حِمْلاً.

---

[1] ـ الحجاج. الجمهرة 290/2، 289.
[2] ـ نفسه. 289/2.

يا أيها الناس! إن أفضل العبادة أداءُ الفرائض، واجتنابُ المَحارم. أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللهَ العظيمَ لي ولكم"[1].

والواقعُ أن أغلبَ خطب عمر بن عبد العزيز عبارةٌ عن مواعظ صادرةٍ عن زعامة دينية قبل أن تكون رئاسة سياسية. والمخاطبُ فيها غيرُ متهم إلا بالغفلة عن المَعَادِ. ويمكن استنتاجُ الكثير من مقارنة خطبته السالفة بفقرة من خطبة زياد التي نكتفي بإيراد مَطلعها:

"أما بعد فإن الجهالةَ الجَهْلاء، والضلالةَ العمياء، والغي المُوفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤُكم، ويَشتملُ عليه حلماؤُكم"[2].

وكاد الحوار بين الرعية والراعي يستولي على الخطابة في آخر العصر الأموي، إذ انشغل الشيعة في هذه الفترة بالعمل السري المنظم، فقلّتْ خُطبهم أو لم يصلنا منها شيء كثير، ومن خطبهم القليلة في هذه المرحلة خطبة عبد الله بن الحسن الطالبي (145هـ) يتنبأ فيها بأفول نجم بني أمية بعد أن دَبَّتِ الفتنةُ في صفوفهم، ويدعو إلى الإجهاز عليهم ومبايعة ابنه محمد وهو المهدي المنتظر في نظره. كما أن الضربات التي تلقاها الخوارج خَضدتْ شوكتُهم فاتجهوا بنشاطهم بعيدا عن مقر الخلافة ولم يصلنا من خطبهم في هذه الفترة غيرُ خطب أبي حمزة. والواقع أننا إذا استثنينا هذه الخطب جازَ لنا القول بأن الخطابة مالت إلى الركود وتكرار النماذج السابقة، وفسحت المجال للخطاب المكتوب.

[1] ـ الجمهرة 2/204-205.

[2] ـ الجمهرة 2/273.

الرؤية العامة

في الخطابة الدينية والسياسية

إذا ما تجاوزنا ظاهر الأمور، وعمقنا النظر في الخطابة السائدة في هذا العصر وهي الخطابة الدينية والسياسية، وجدنا أن المفاهيم السائدة فيهما متشابهة، وذلك ما يجعل الرؤية موحدة. نجمل هذه المعاني في النقط التالية:

1) الدعوة إلى الطاعة:

أ ـ طاعة الله عند الوعاظ والخطباء الدينيين عامة، والاجتهاد في أداء الواجب الديني.

ب ـ طاعة أولي الأمر عند خطباء الدولة، والابتعاد عما يسيء إليهم.

ج ـ الوفاء للجماعة والحزب عند الشيعة خاصة بعد قتل الحسين وظهور حركة التوابين.

2) الدعوة إلى العصيان

الثورة على الخصوم ومحاربتهم، نجد ذلك في خطب الخوارج والشيعة بوجه خاص، ويلازم ذلك ذكر مساوئ الخصوم والحجة القائمة عليهم.

3) الوعد

أ ـ بالجنة وحسن الثواب عند الوعاظ وخطباء الخوارج، وعند

غيرهم في مستوى أدنى وذلك جزاء للعبادة والجهاد.

ب ـ بالعطاء الجزيل وحسن المعاملة عند خطباء الدولة الأموية خاصة، جزاء الطاعة.

4 ـ التهديد والوعيد

أ ـ التهديد بعذاب الله ونقمته عند الوعاظ وخطباء الشيعة والخوارج مع بيان بشاعة الصيان.

ب ـ التهديد بالحرمان والقتل عند خطباء بني أمية خاصة مع تشخيص العقاب. وتسود، بصفة عامة، مفاهيم الراعي والرعية والعلاقة المتوترة بينهما؛ الرعية الغافلة عن عبادة الله الثائرة على (الخليفة)، والراعي الذي يحمل وزر الفتنة الكبرى، باغتصاب الحق.

بين الرعية وحاكمها الأعلى يقف رجال الدين يلوحون بعذاب الله ونعيمه.

بين الرعية وحاكمها الأدنى يقف خطباء الدولة يلوحون بعذاب الخليفة ونعيمه.

ويقف شعراء المعارضة السياسية الدينية مُرغِّبين في نعيم الله مزهدين في نعيم الخليفة.

أيها المَادحُ العبادَ ليُعطي ... إن لِلَّهِ ما بأيدي العِبادْ.

المقام في الخطابة السياسية

1 - بين الأنداد

النصح

(الرسول في أول أمره: وأنذر عشيرتك الأقربين)

المشاورات

داخل الأحزاب (بين الخوارج في شأن ابن الزبير)، عند الشيعة عزم الحسين على السفر إلى الكوفة).

المناظرات

(بين الأحزاب. مناظرة الخوارج وابن عباس وعلى وعمر بن عبد العزيز.

وفي هذه الأحوال كلها يميل الخطباء إلى الهدوء ومحاولة الإقناع بالحجة والمنطق، ويختفي عنصر التفاخر وإظهار القوة، كما يتحاشى الخطباء، فيما رأيت، المبالغة في تجميل الأسلوب.

وفي هذا العنصر يمكن إدخال الخطابة الاجتماعية فهي بين أطراف تجمعها علاقات اختيارية وعلاقة المشاركة. كما يدخل هنا كذلك جانبٌ من الخطابة الدينية. في حين يدخل جانب منها في مقام الرئيس والمرؤوس.

2 - من غالب لمغلوب

مغلوب مشاق

(عامة الشعب)

- التهديد والوعيد مع الإغراء أحيانا (الحجاج وزياة وغيرهم من ولاة بني أمية مع أهل العراق)

1) اعتماد صور الإرهاب..

2 - الاتهام وإقامة الحجة عليهم.

3) التخويف من عواقب العودة إلى الفتنة

وتعتبر الخطب في هذه المناسبات من أنضج الخطب فنيا، وهي مليئة بالمواد الشعرية، لأنها تمتح من شعر الحماسة، ولأن أصحابها من البلغاء مثل الحجاج، ولأنهم لا يحتاطون في القول على سجيتهم أمام جمهور مغلوب على أمره

مهزوم في حرب

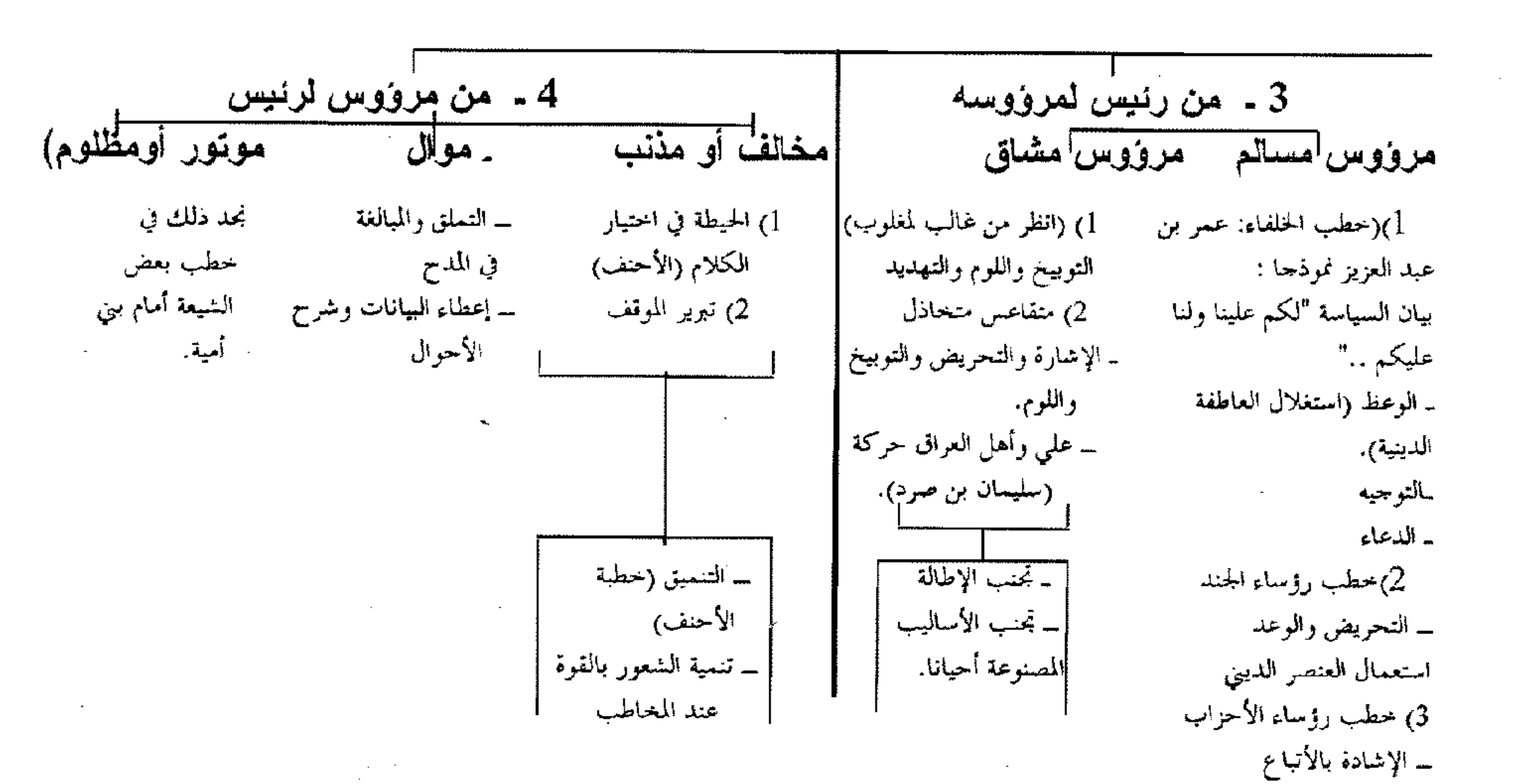
1) تبرير الإيقاع بالخصم إذا كانت له مكانة احترام عند الجمهور

- الحجاج بعد قتل ابن الزبير

- أبو حمزة بعد الإيقاع بأهل المدينة

- على بن أبي طالب بعد "الجمل"

2) التشفى من المهزومين: بين الخوارج وغيرهم، وبين أصحاب العصبيات القبلية. (يعتبر الجانب الأول من الجوانب التي اعتمدت على الحجج التاريخية والمنطقية، في حين يدخل الجانب الثاني ضمن التهاجي والسباب).


3 - من رئيس لمرؤوسه
مرؤوس مسالم
1)(خطب الخلفاء: عمر بن عبد العزيز نموذجا : بيان السياسة "لكم علينا ولنا عليكم .."
- الوعظ (استغلال العاطفة الدينية).
- التوجيه
- الدعاء
2)خطب رؤساء الجند
- التحريض والوعد
استعمال العنصر الديني
3) خطب رؤساء الأحزاب
- الإشادة بالأتباع
- تنقيص الخصوص
- التحريض على القتال
مرؤوس مشاق
1) (انظر من غالب لمغلوب) التوبيخ واللوم والتهديد
2) متقاعس متخاذل
- الإشارة والتحريض والتوبيخ واللوم.
- علي وأهل العراق حركة (سليمان بن صرد).
- تجنب الإطالة
- تجنب الأساليب المصنوعة أحيانا.
4 - من مرؤوس لرئيس
مخالف أو مذنب
1) الحيطة في اختيار الكلام (الأحنف)
2) تبرير الموقف
- التنميق (خطبة الأحنف)
- تنمية الشعور بالقوة عند المخاطب
- موال
- التملق والمبالغة في المدح
- إعطاء البيانات وشرح الأحوال
موتور أومظلوم)
نجد ذلك في خطب بعض الشيعة أمام بني أمية.

3 ـ مقامات الخطابة الاجتماعية وشؤون الحياة

يدرج الدارسون جميع الخطب التي لا يستوعبها الموضوعان السابقان، أي السياسة والدين تحت عنوان فضفاض: الخطابة الاجتماعية، خاصةً خطبَ الإملاك وإصلاحِ ذاتِ البيْن والمخاصماتِ القضائية والمشاركة في المسرات والأحزان. ويمكن تصنيف هذه الخطب على كثرة موضوعاتها إلى صنفين:

3 ـ 1 ـ خطب في موضوعات اجتماعية تتناول العلاقة بين الناس وتنظيم المجتمع مثل خطب الإملاك، والصلح والمخاصمات القضائية وهي في أغلبها ذات طبيعة موضوعية.

3 ـ 2 ـ وخطب ذات طبيعة وِجدانية هدفها المشاركة والإشراك في المسرات والأحزان، كالتعزية والتهنئة ووصف المشاهد والبلاد.

3 ـ 1 ـ في التنظيم الاجتماعي

ويكون المتلقي في الصنف الأول حكماً ينظر في حجج المتخاصمين بحياد يجعلهما يعتمدان الحجة المقنعة، والأحوال المؤثرة كما يعتمدان التأثير الأسلوبي، وأشهر المخاصمات القضائية في العصر الأموي ـ وما وصلنا منها قليل ـ مخاصمة أبي الأسود الدؤلي وزوجته في موضوع الحضانة بعد الطلاق، فيروي أنهما احتكما إلى زياد أو معاوية، فجاء في مرافعة المرأة:

"أصلحَ اللهُ الأميرَ، هذا ابني كان بطني وِعاءَهُ، وحِجري فِناءَه، وثديي سِقاءَهُ، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزلْ بذلك سبعة أعوام، حتى إذا استوفى فِصالَه، وكَمُلت خِصالُه، واستوكعت أوصالُه[1]، وأمَّلتُ نفعَه، ورجوت دَفعَه، أراد أن يأخذهُ مني كَرْهاً، فآدني أيها الأميرُ، فقد رامَ قهري، وأراد قسري".

وكان رد أبي الأسود:

"أصلحكَ اللهُ، هذا ابني، حملتُه قبل أن تحملَه، ووضعتُه قبل أن تضعه، وأنا أقومُ عليه في أدبِه، وأنظرُ في أوده، وأمنحُه علمي، وألهمُه حلمي، حتى يكمل عقلُه، ويستحكم فتلُه".

فعقبت المرأة عليه:

"صدق أصلحك الله، حمله خفاً، وحملتُه ثِقلاً، ووضعه شهوةً ووضعتُه كَرها".

وكان حُكم القاضي (زياد أو معاوية):

"أرْدُدْ على المرأة ولدَها، فهي أحقُّ به منك، ودعني من سجعك[2]

وهذا النص يدعم اتجاه المناظرة الذي عرضنا له في الخطابة الدينية والسياسية إذ يوضع المخاطب فيه في مستوى التحليل والتأويل.

احتجت المرأة في هذه المرافعة بما بذلته في تربية الطفل، وما سبب لها من عناءٍ تريد جزاءَه، كما حاولت التأثير بما سيصيبها من

---

[1] ـ استوكعت: اشتدت وقويت. آداه: أعانه.

[2] ـ جمهرة خطب العرب 394/2.

حرمان إذا ما انتزع منها ابنها بعد أن أمَلَّتْ نفعه. واعتمد أبو الأسود على المغالطة أولاً ليُوهن حججَ المرأة، ثم احتجَّ بمصلحة الطفل وتربيته الرجولية. وانتبهت المرأة إلى ضعفِ الجانب الأول من مرافعة أبي الأسود فعادت لتستغله ضده، ثم إنهما معا اعتمدا التأثير الأسلوبي، وانتبه الحكم إلى ذلك فقال: "ودعني من سجعك".

ورغم وجود ما يشير إلى انتشار هذا النوع من الخطابة في العصر الأموي مثل قول الشاعر[1].

إني امرؤٌ لا أُقيلُ الخصمَ عثرتَه   عندَ الأمير إذا ما خصمَه ظلما

فإن النصوص الخطابية قليلة، ولم تنظم المرافعات القضائية إلا في العصر الحديث. على أني أرى أن المنافرات الجاهلية ومثيلاتها في الإسلام يمكن أن تدخل في هذا الباب، وإن اعتمدت على الفخر والمدح والهجاء أكثر من اعتمادها على الحجة والإقناع.

– ويسعى الخطيب في خطب الإملاك إلى إقناع ولي العروس بصلاح العريس حسب القيم الاجتماعية المعتبرة عندهما، ففي النماذج الجاهلية نجد الحديث عن مكانة القبيلة، ورَجاحة عقل العريس ووفرة ماله أو تبرير قلته كما نجد في خطبة أبي طالب عند زواج الرسول بالسيدة خديجة:

"الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم، وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراما، وبيتا محجوجا، وجعلنا الحُكام على الناس.

---

[1] ـ الأقرع القشيري. البيان 172/2.

ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلا، وكرماً وعقلا، ومجداً ونبلا.

وإن كان في المال قُل، فإنما المال ظِلّ زائل، وعارية مسترجعة وله في عائشة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلي"(1).

واهتم الخطباء في العصر الإسلامي بإظهار المزية الدينية خاصة إذا لم تكن للعريس مزايا اجتماعية أخرى ككرم النسب، ووفرة المال. ولجأوا أحيانا إلى التلويح والتعريض لإشعار مخاطبيهم بالقيم الجديدة شأن بلال في خطبته على أخيه امرأةً من قريش. ولابد من وضع بلال بجانب قريش لإدراك فحوى الخِطاب؟

"نحنُ من قد عرفتُم، كنا عبْدين فأعتقنا اللهُ، وكنا ضالّين فهدانا اللهُ. وفقيرين فأغنانا اللهُ، وأنا أَخْطُبُ على أخي خالدٍ فلانةً، فإن تنكحوه فالحمد لله، وإن تردُوهُ فالله أكبر"(2).

وفحوى كلامه أن "الرد" إن وقع سيكون بسبب العُبودية والفقر، والحالُ أن اللهَ أبطلهما وهو "أكبر" من قريش، فسيكون تصرفهم تطاولاً على إرادته. ولهذا لجأ الخطباء فيما بعد إلى الحديث عن حكمةِ الإسلام في الزواج ودوره في بناء المجتمع، "وكان الحسنُ (البصري) يقول في خطبة النكاح بعد حمد الله والثناء عليه:

"أما بعد فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة، والأنسابَ

---

[1] ـ الجمهرة 77/1.

[2] ـ أورده إحسان النص في الخطابة العربية 35.

المتفرقة، وجعل ذلك في سُنّةٍ من دينه، ومنهاج واضح من أمره، وقد خطبَ إليكم فلانٌ وعليه من الله نِعمةٌ"[1].

وكان ذلك حريا أن يجنب الخاطب المتحرجَ عناءَ مدح العريس بما ليس فيه، كعمر بن الخطاب، وكان عمر قال: "ما يَتَصعَّدُني شيءٌ كما تتصعدُني خطبة النكاح"[2].

وكان المقام يقتضي "أن يطيلَ الخاطبُ، ويقصر المجيب"[3]، إذ كان المجيبُ يقتصر على إظهار الرِّضى واشتراطِ المعاملة بالحسنى أو التسريح بإحسان.

ـ أما خطب الصلح والحمالات فقد نظر الخطباء فيها إلى أحوال المتخاصمين فأجازوا لأنفسهم الإطالة بالقدر الذي يسمح بسل الضغائن من القلوب، فكان "النخارُ بنُ أوس العذري إذا تكلم في الحمالات، وفي الصفح والاحتمال وإصلاح ذات البين وتخويفِ الفريقين من التفاني والبَوَارِ، كان ربما ردد الكلام عن طريق التهويل والتخويف، وربما حمي فنخر"[4]. وكان لهذه الخطابة مكانة خاصة في العصر الجاهلي، ولم تنقطع في العصر الإسلامي لاستمرار الصراعات القبلية، غير أننا لا نتوفر على نماذج بالطول الذي تحدثت عنه كتب الأدب. "ويظهر أن أهل البادية كانوا أمهرَ في هذا اللون من الخطابة من أهل الحضر لاتصالِ موضوعاته بحياتهم وبيئتهم"[5].

---

[1] ـ البيان 100/1.

[2] ـ البيان 116(1 ويرى ابن المقفع أن الحرج ناتج عن قرب الوجوه من الوجوه (نفسه).

[3] ـ البيان 161/1 كما اقتضى الجو العائلي أن تكون هذه الخطابة جلوسا.

[4] ـ البيان 105/1.

[5] ـ إحسان النص. الخطابة العربية 239.

وحظ الخطابة في موضوعات تنظيم المجتمع من الصناعة الأسلوبية محدود، خاصة خطبة النكاح وإصلاح ذات البين.. أما النموذج الذي ظفرنا به من الخطابة القضائية، فإنه يعتمد الموازنات الصوتية كما ترى.

3 . 2 ـ في المشاركة الوجدانية

أما الخطابة في موضوعات المشاركة الوجدانية فإن وضع الخطيب فيها أشبه ما يكون بوضع الشاعر، فالاستمالة فيها مقدمة على الحجة في الغالب. إذ يسعى الخطيب لمشاركة الآخرين ما يجده أو يتظاهر به، أو إشعارهم بمشاركته إياهم وتعاطفه معهم فيما ألم بهم. على أن الخطيب في مثل هذه الموضوعات قد يواجه نفسه مرسِلا ومتلقيا. كما في ندب الموتى وتأبينهم. ومن أشهر النماذج في ذلك كلمة فرغانة على قبر الأحنف بن قيس، وهي كلمة شعرية متوازنة[1]، ولا عجب فالوسائل الشعرية أنجع في مثل هذه الأحوال، وربما كان في ذلك ما يفسر انزلاق خطيب مثل عبد الله بن همام السلولي من القول الخطابي المنثور إلى المنظوم في كلمته التي ألقاها بين يدي يزيد بن معاوية، وجمع فيها بين التعزية والتهنئة، فهي أربعة أسطر من النثر وأربعة أبيات من الشعر[2].

---

[1] ـ انظر الخطبة في الملحق. وانظر دراسة الأسلوب في الفصل الفني.

[2] ـ انظر الخطبة في الملحق.

الفصل الثالث:

صور الحجاج:

القياس، المثال، الشاهد

(الدعوة إلى الانسجام)

تشترك هذه الوسائل (القياسَ والمثال والشاهد) في دعوتها العقلَ إلى الانسجام مع مبادئه (السببية، وعدم التناقض...)، أو مع العالم الخارجي المحيط به بما فيه من قيم ومواضعات اجتماعية ورصيد ثقافي ونصوص مقدسة وتشريعات وقوانين ومصلحة عامة.

1 ـ الانسجام الداخلي

كثيرا ما جمعت الآليات المتعلقة بهذا الجانب تحت عنوان شامل: القياس الخطابي. وهو يتسع ليشمل جميع صور الاستقراء والاستنتاج القائمة على الاحتمال لا القطع ، قد يضيق ليدل على القياس الذي تضمر نتيجته أو إحدى مقدمتيه. ونحن نميز هنا بين القياس الخطابي والتمثيل مع ما سيلاحظ من تداخل بينهما.

1 . 1 ـ القياس الخطابي

جمع أرسطو مجموعة من البراهين الخطابية تحت ما ترجم بالقياس المضمر، أو Enthymème، وهو لا يعني (حسب قول هافي Havet)، كما هو الشأن عندنا، مجرد عرضٍ خارجي في الاستدلال مرجعُه إضمار إحدى المقدمتين فحسب، فهذا سطحي ولا أهمية له[1]. ففي حين يقوم القياس المنطقي على الاستنتاج العلمي الصارم، يقوم القياس المضمر، أي القياس الخطابي على الرأي، "وعلى هذه الاحتمالات التي تكفي في معالجة الأمور"[2]. "فالقياس المضمر هو قياس يقوم على الاحتمالات". ويوجد فرق كبير بين القياسات

[1] - Havet (E). Etude sur la rhétorique P.34

[2] - نفسه.

المضمرة أو التفكيرات حسب الترجمة العربية القديمة[1]، فمنها عام يمكن أن يطبق في جميع المواد، مثل مبدأ الأقل والأكثر. وهي تقوم على مبادئ العقل نفسه، "فهذه أطر تستوعبُ كل شيء، ولذلك دعيت المواضع العامة Lieux communs أو المواضع Lieux فحسب"[2]. وهناك حجج خاصة مستخلصة انطلاقا من مفاهيم خاصة وهي في هذه الحالة تطبق في المواد التي لها علاقة بهذه المفاهيم[3].

وقدم أرسطو في كتاب الخطابة ثماني وعشرين حالة من البرهنة بالقياس المضمر وهي الأقيسة الاستدلالية، وأربعا من الأقيسة التفنيدية[4]. واهتم بيرلمان Perelman وأولبرشت Olbrechts من هذه الأفكار العامة Les lieux communs بفكرتي الكم والكيف. وكان بالإمكان في نظرهما إدماج ما سواهما فيهما مثل فكرة الترتيب، والوجود والجوهر والشخص[5]. ويلاحظان أنه "قد يكون مهما أن نستخرج في عصور مختلفة وأماكن متنوعة الأفكار (Lieux) التي اعتُبرت مقبولة على العموم، أو على الأقل، التي تظهر للخطيب مقبولة عند الجمهور"[6]. فالعلاقات والتبريرات التي

---

[1] ـ انظر الترجمة العربية لكتاب الخطابة ص 75. وقال المحقق إنها ترجمة حرفية للكلمة اليونانية التي تعني الأمور في الذهن (الحاشية). وانظر الخطابة 142 وما بعدها.

[2] ـ Havet (E). Etude sur la rhétorique p.33

[3] ـ نفسه، وبيرلمان في Traité de l'argumentation p.112-128.

[4] ـ الخطابة 152-169.

[5] ـ انظر تفصيل ذلك في Traité de l'argumentation p. 112-128

[6] ـ نفسه 128، 131. وفيه أيضا أن كل ما هو خالد ومقبول على العموم، وأن كل ما يهم أكبر عدد من الناس يُعتبر مُقدماً وأساسا للقيم عند الكلاسكيين. أما المتفرد والأصيل والجديد والمتميز والمتفرد في التاريخ والعابر، والذي لا يعوض

تقدم بها هذه الأفكار وقتية في كثير من الأحيان، ولذلك فالفكر الكلاسيكي مثلا يُعطي أولوية لمبدأ "الكم" ويحاول جَرَّ جميع الأفكار الأخرى إليه، أما الفكر الرومانتيكي فيجتذب الأفكار الأولية الأخرى إليه.

نماذج من الأقيسة الخطابية

أ - التعارض والتضاد:

أـ1ـ قال الحجاج: "زعمتم أني ساحر، وقد قال الله تعالى: "ولا يفلح الساحر"، وقد أفلحت".

وتخريجه:

لا يفلح الساحر

أفلح الحجاج

إذن: ليس الحجاج ساحرا، (أو هم كاذبون، لأن تصديقهم يؤدي إلى تكذيب الله، والله أكبر منهم. فلا مفر إذن من أن ينكسر الأصغر).

أـ 2 ـ "زعمتم أني أعلم الاسم الأكبر، فلم تُقاتلون من يعلم ما لا تعلمون"

وتخريجه:

فتلك أفكار رومانتيكية.

إن الرومانتيكية ستعارض فضيلتي الصدق والعدالة عند الكلاسكيين بالحب والإحسان والإخلاص.

وإذا كان الكلاسيكيون يتمسكون بالقيم المجردة أو العامة على أقل تقدير فإن الرومانتيكيين يمتدحون القيم الملموسة والخاصة، ويعارضون تقديم الفكر والتأمل، عند الكلاسيكيين بالعمل والفعالية (Traité 132-131).

- من يعلم الاسم الأكبر لايغلب
- تعترفون بأني أعرف الاسم الأكبر
إذن: أنتم مخطئون في مقاتلتي.

أ -3- قول الأحنف بن قيس لمعاوية:

وقال الأحنف بن قيس لمعاوية: "أخاقك إن صدقتك، وأخاف الله إن كذبتك"[1].

ويشرحه المثال بعدة المنسوب لجامع المحاربي في الحجاج أيضا:

"إن صَدَقْناك أغضبناك، وإن غشَشناك أغضبنا الله، فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله"[2].

فبإضافة الجملة الأخيرة ("فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله") اكتملت مكونات القياس ولم يعُد مضمرا. ولعلها من إضافات الرواة.

أ - 4 - وقال الخطيب العربي: "كل ما أقام شَخصَ، وكل ما ازداد نَقَصَ، ولو كان الناسُ يُميتهم الداء، إذن لأعاشهم الدواء[3].

= الداء يعالج بالدواء + الناس يموتون مع ذلك = الناس يموتون لسبب آخر.

أ. 5 - ومن القياس الخطابي قياس الأصغر على الأكبر والخاصَ على العام:

---

[1] - البيان 211/1(هرون). في باب: "المعاني الظاهرة باللفظ الموجز".
[2] - الجمهرة 407/2.
[3] - البيان 154/3.

من أمثلة في القرآن:
"فسيقولون من يعيدنا، قل الذي فطركم أول مرة".
وقد سبق قوله:
"إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب".

فالأهون أن يولد الإنسان من رحم، ولو بدون أب، من أن يولد من تراب. كما أن الإعادة أهون من الخلق الأول.

أ ـ 6 ـ ومثالُ التضاد عند أرسطو: "إذا كانت الحربُ سببَ الشرور الحاضرة فبالسلم يجب إصلاحها".

إلى غير ذلك من أنواع البراهين، والأقيسة المضمرة التي يمكن استخراج أطرافها المضمرة على النحو التالي:

قال الحجاج لأهل العراق:

"يا أهل العراق بلغني أنكم تَرْوُون عن نبيكم أنه قال:
"مُن مُلك على عشر رقاب من المسلمين جيئ به يوم القيامة مَغلولةً يداه إلى عنقه، حتى يَفُكه العَدل، أو يُوبقه الجور. وأيْمُ الله إني لأحَبُّ إلي أن أُحشر مع أبي بكر وعمر مَغلولاً، من أن أحشر معكم مطلقا"[1].

والتقدير: أبو بكر وعمر حكما، لم يوبق الحكمُ أبا بكر وعمر = الحكم لا يوبقُ أحداً.

وفيه كذلك استشهاد بالمثل الرفيع الذي لا يجرؤ المستمع على الطعن فيه، وفيه تحقير لهم كذلك. والمثل له قوة القياس المضمر، كما

---

[1] ـ نفسه 297/2.

أن الحكمة إذا أضيف إليها تفسير صارت قياسا مثل:

"ليس هناك إنسانٌ حُر، لأنه إما عبد للمال أو عبد لأطماعه"[1]. وترتيب القياس فيه: الإنسان عبد للأطماع والمال، من يستسلم للأطماع والمال ليس حراً = الإنسان ليس حرا. ويمكن هنا الاعتراض على المقدمات لأن الناس ليسوا جميعاً عبيداً للمال والأطماع، وهذا مدخل الاحتمال في هذا القياس.

ومن أمثلة القياس المضمر كذلك قول الخطيب:

"الدنيا عَرَضٌ زائل، يأكلُ منها البَرٌ والفاجر"[2].

والتقدير:

1ـ ما يأكل منه البَرُ والفاجرُ عرض زائل

2 ـ الدنيا يأكل منها البر والفاجر

= الدنيا عرض زائل.

ومن القياس الخطابي في القرآن:

"إن مَثَل عيسى عند الله كمثل آدم؛ خلقه من تراب، ثم قال له: كُنْ، فَيكون"[3].

وقد نَزلتْ هذه الآية في الرد على من يؤله عيسى، وذلك لتبرير خلقه من غَير أبٍ. وقد يبدو أنه احتجاج بالمَثَلِ، غير أن المرادَ هو

---

[1] ـ الخطابة 3 الفصل 21.

[2] ـ الجمهرة 2/ 296.

[3] ـ آل عمران 59.

الاحتجاج بالأكثر والأقل: فالله الذي خلق آدم من تراب، والتراب ليس مَحلَّ الخلقَ العادي، أقدرُ على أن يخلق من الرحم، وهو المكان العادي للخلق.

ونظيره: "فَسَيَقُولُونَ مَن يُعيدُنا؟ قُلِ الذي فَطَرَكُم أولَ مرة"[1].

"يسميه الفقهاءُ قياساً، ويُسميه المتكلمون ردَّ الغائب على الشاهد"[2].

ومن أشهر القياسات المضمرة في القرآن ما دعوه قياسَ الخُلْف، وهو"إثباتُ الأمر ببُطلان نقيضه"، كما في سورة الأنبياء: "لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفسدتا"، وإذ لم تَفسُدا، فليس فيهما إلا إلهٌ واحد. ولا نريد استقصاء أمثلة أصناف القياس المستعملة في القرآن، فهي كثيرة، ولذلك مَظانّة.

وإذا ما قصرنا اهتمامنا في الخطابة وجدنا أقيسة على النمط الذي تقدم، ثم نجد ما هو أكثر من ذلك حين تُبنى الخطبة كلها أو جلها على قياس كخطبة الحسين في أصحابه في كربلاء.

"أيها الناسُ إن رسولَ الله (ص) قال:

من رأى سُلطاناً جائراً مُستَحِلاً لحُرمِ الله، ناكثاً لعهد الله، مُخالفاً لسنة رسول الله (ص)، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغير ما عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يُدخله مُدْخَلَه.

---

1 ـ الإسراء 51.

2 ـ الجدل في القرآن 255 والآية من سورة الأنبياء: 22.

ألا وإن هؤلاء قد لَزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمـن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيْء، وأحلُّوا حرامَ الله، وحرّموا حلالَه. وأنا أحقُّ من غيَّرَ.

وقد أتتني كُتبكم ورسلُكم ببيعتكم وأنكم لا تسلموني ولا تخذلونـي، فإن أقمتم على بيعتكم، تصيبوا رشدكم.

وأنا الحسينُ بنُ علي بنُ فاطمة بنتِ رسول الله (ص)، نفسـي مـع أنفسكم، وأهلي مـع أهليكم. فلكُمْ فِيَّ أُسوَة. وإن لـم تفعلوا ونقضتم عهدي، وخلعتم بيعتي، فلعمري ما هي لكم بنكيرٍ. لقد فعلتموها بـأبي وأخي وابن عمي مُسلم بن عقيل، والمغرورُ مَنْ إغْتَرَّ بكم، فحظَّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتُم. "فَمَنْ نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ علَى نَفْسِهِ" وسيُغني اللهُ عنكم، والسلام"[1].

ويمكن الاكتفاء باستخراج قياس أساسي في هذه الخطبة وهو:

المقدمة (1): من رأى سلطاناً جائراً ولم يغير منكره ناله العقاب.

المقدمة (2): بنـو أميـة جاروا عن طريق الرحمـن وساروا فـي طريق الشيطان.

النتيجة: يجب تغيير منكر بني أمية، وإلا نزل العقاب. وأنا قد قائم لذلك اعتماداً على بيعتكم ونصرتكم.

ومن ذلك خطبـة أبـي حَمـزةَ الشَّـاري التـي ألقاهـا بالمدينـة سـنة 130هـ. فقد رَقِيَ المنبرَ فحمد اللهَ. وأثنى عليه وقال:

"يا أهلَ المدينة: سألناكم عن وُلاّتِكم هؤلاء، فأسَأتم ـ لعمـر اللـه ـ فيهم القول؛ قُلتم واللهِ ما فيهم الذي يُعلم، أخذوا المال مـن غيـر حِلِّـه،

---

[1] ـ جمهرة خطب العرب 48/2.

فوضعوه في غير حقّه. جاروا في الحكم، فحكموا بغير ما أنزل الله. واستأثروا بفيئنا، فجعلوه دُولةً بين الأغنياءِ منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مُهور النساء، وفُروج الإماءِ.

فقُلنا لكم: تعالَوْا نحن وأنتم إلى الذين ظلمونا وظلموكم، وجاروا في الحكم، فحكموا بغيرِ ما أنزل الله نناشدْهم اللهَ أن يتنحوا عنا وعنكم، ليختار المسلمون لأنفسهم.

فقلتم: لا يفعلون. فقلنا لكم: تعالَوا نقاتلْهم، فإنْ نَظْهرْ نحن وأنتم نأتِ بمن يقيمُ فينا وفيكم كتابَ الله وسنةَ نبيه محمد (ص).

فقلتم: لا نقوى على ذلك.

فقلنا لكم: فخلُّوا بيننا وبينهم، فإن نظفرْ نعدِلْ في أحكامكم، ونحملْكم على سنة نبيكم (ص)، ونقسِمْ فيئَكم بينكم. فأبيتم، وقاتلتمونا دُونهم، فقاتلناكم وقتلناكم، فأبعدكمُ الله وأسحقكم"[1].

وتأويلُ ذلك:

طعنتُم في وُلاتكم وأوجبتم بذلك قتالهم: ثم تقاعستم عن قتالهم. بل عَدَوتُم ذلك إلى الدفاعِ عنهم.

ومن يَفعلْ ذلك يُقاتلْ؛ لأنه يعوقُ تغيير المنكر.

= فقاتلناكم تغييراً للمنكر.

وقصارى ما نريد بيانه، بعدُ، هو أن الخطابة العربية استعملت أقيسةً عقلية متنوعةً يدخل أغلبها فيما أحصاه أرسطو، وذلك حتى قبل اتصال العربِ بالفلسفة اليونانية اتصالَ ترجمة ودراسة وتأثُّر. وهذه

---

[1] ـ جمهرة خطب العرب 465/2.

البراهين والأقيسة تعود إلى طبيعة العقل الإنساني ومبادئه.. إلا أن الاتجاه إلى المنطق المكثّف، والحجة العقلية الصريحة إنما ظهر في المناظرات بين المتكلمين وأصحابِ المذاهب الدينية ابتداءً من مناظرة واصل والحسن البصري إلى مناظرات غيرهم من المتكلمين والفقهاء.

والقياس الخطابي يقوم على الاحتمال والترجيح، كما سبق، ومجاله الأساسي في نظرية أرسطو المرافعات القضائية. والمعروف أن هذا النوع من الخطابة لم تكن له أهمية كبيرة في العصر الذي ندرسه. على أن الواقع يقتضي الاعتراف بأن بعض المواقف التي يسعى فيها الخطباء إلى دفع التهمة أو التبرؤ من الوشاية أو تبريئ ذمة القبيلة لا يمكن فصلها عن الخطابة القضائية إلا لاعتبارات تكاد تكون شكلية.

وهذا لا يتعارض مع قناعتنا الشخصية بأن الخطابة العربية كانت، إلى نهاية القرن الأول الهجري، خطابة التأثير النفسي بالترغيب والترهيب، وخطابة أسلوبٍ وعبارة.

ب ـ ومن مواضيع البرهان الخطابي التقسيم "المستقصي":

قال الحجاج في إحدى خطبه:

"مالي أرى علماءَكم يذهبون، وجُهالكم لا يَتعلّمون، وشِراركم لا يتوبون"؟!

فهو يسعى إلى الإيحاء بالإحاطة بالموضوع من كل جوانبه لصرف نظر المستمع عن البحث والقصي.

وممن عرفوا بالتقسيم والتفصيل قتيبة بن مسلم، ومن تقسيماته:

"من كان في يديه شيءٌ من مال عبد اللـه بن خـازم فلينبُذْه، وإن كان في فيه فليلفَظْه، وإن كان في صدره فلينفُثه"[1].

قال الجاحظ في البيان والتبيين: "فعجب الناس من حسـن مـا قسّم وفصّل".

وهذا "العَجَب" هو المطلوب هنا لأنه يسهل الإقناع.

وقال مرة أخرى لأهل خراسان:

"يا أهلَ خراسان قد جربتم الولاة قبلي؛ أتاكم أميةُ فكان كاسمه .. ثم أتاكم بعدَه أبو سعيد .. فـدوخ بكم ثلاثـاً. ثم أتـاكم بنـوه بعده مثل أطْباءِ الكلبة.. ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد"[2].

وقال لأهل العراق:

"يا أهلَ العراق ألستُ أعلمَ النـاس بكم: أمـا هذا الحَـيُ من أهل العالية فنعم الصدقة، وأما هذا الحي من بكر.. وأما هذا الحَيُ من عبد القيس.. وأما هذا الحي من الأزد.. وأما هذا الحي من تميم.."[3].

فتتبع قبائل العرب، وأبدى في كل حي رأيا يُقنع بِعلمه بـأحوال العرب ويبعد عنه مَظنةَ الجهل، والطمعَ في تضليله.

وتحدث قدامة بن جعفر عن "صحة التقسيم" واعتبرهـا من نعوت المعنى مُعمما إياه على الشعر أيضـا. قـال: "وهـي أن يبتدئ الشـاعر فيضع أقساما فيستوفيها، لا يغادر قسما منها. مثال ذلك قـول نَصَيْب،

---

[1] - البيان 2/ 108.

[2] - البيان 2/ 133-134.

[3] - البيان 2/ 134-135.

يريد أن يأتي بأقسام جواب المجيب عن الاستخبار:

فقالَ فريقُ القومِ: لا، وفَريقُهُم:

نَعمْ، وفريقٌ قال: وَيْحَكَ، ما نَدري"

قال قدامة: "فليس في أقسام الإجابةِ عن مطلوب، إذا سُئل عنه، غيرُ هذه الأقسام"[1].

2 ـ المَثَل:

يقوم المثل في الخطابة مقام الاستقراء في المنطق، أو المثل هو استقراء بلاغي. والمثل حُجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية إحديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها.

وهو عند أرسطو تاريخي ومصطنع، فمن التاريخي الميثولوجي أيضا. كما أن المصطنع ينقسم إلى:

1) مثل بالتشابه كالاستشهادِ على فساد اختيار القضاة بالقُرعة، وتفنيد رأي من اقترح ذلك بفسادِ اختيار المُتصارِعَيْنِ أو ربّان السفينة بها[2]،

وَ2) مَثَلٌ خرافي شخصياتُه من الحيوانات كقصة استعباد الفرس التي حكاها الشاعر اليوناني اسطيسخُورس لأهل صقلية، "حيث أرادوا

---

[1] ـ نقد الشعر 131.

[2] ـ أرسطو الخطابة. الكتاب 2 الفصل 30 ص 139.

أن يُقيموا لفالريسِ الحرسَ والحفظةَ فإنه بعدما فسَّر عن أشياء أُخر ضربَ لهم مثلاً بفرس كان قد استولى على مَرعىً وتفرَّد به وحدَه، فتدخل أيل فأفسدَ المرعى، واستعان الفرس بالإنسان لإخراج الأيْل، فكان شرطُ الإنسان أن يقبل الفرسُ اللجام ويحمل الإنسان على ظهره، وفي يده قضيبٌ. "فلما أذعن الفرس بذلك ركبه الرجل وصار مكانَ الانتقامِ من الأيل إلى أن خضع للرجل، وصار في مِلكه"[1].

والمثلُ التاريخي عند أرسطو:

"كما لو قال قائلٌ إنه ينبغي للملك أن يستعد ولا يخليَ العدوَّ ودخولَ مصرَ، فإن داريوس أيضا في تلك الغزاة لم يتقدم دون أن احتوى على مصر، فلما حواها دلف.. والآن أيضا إن أخذ العدو مصرَ مضى قُدماً فليس ينبغي للملك أن يرخِّص في ذلك"[2].

وانتبه دارسوا النص القرآني والبلاغيون العرب بالممارسة والمثاقفة إلى أهمية المثل في إحداث الإقناع. جاء في البرهان في وجوه البيان لأبي الحسين إسحاق ابن إبراهيم ابن وهب:

"وأمّا الأمثالُ فإن الحكماءَ والعُلماء والأُدباءَ لم يزالوا يضربون ويَتَبَيَّنُون للناس تصرُّف الأحوال بالنظائر والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلبا، وأقربَ مذهباً. ولذلك قال الله عز وجل: "ولقد

---

[1] ـ أرسطو الخطابة.139-140. وفي ترجمة بدوي: "فوافق الفرس على هذه الشروط، وركبه الرجل، ولكنه بدل أن أن ينتقم له من الأيل صار الفرس من ذلك الوقتعبدا له". (الخطابة لأرسطو 155).

[2] ـ نفسه 138-139.

ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل"[1]، وقال : "وَسَكَنتُم في مَساكن الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم، وتَبَيَّنَ لكُم كيف فَعلنا بِهِم، وضربْنا لكُمُ الأمثال"[2]...

وكذلك جعلتِ القدماءُ أكثر آدابها وما دوَّنته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم. ونطقت ببعضه على ألسُنِ الطير والوحش، وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبارَ مقرونةً بذكرِ عواقبها، والمقدماتِ مضمومةً إلى نتائجها"[3].

وإلى مثل ذلك ذهب الزركشي فالمثل، في تقديره، "يستعملُ لإخراج ما لا يُعلمُ ببديهةِ العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وما لم تجر به العادة، وما لا قوةَ له من الصفَة إلى ما لَهُ قوة"[4].

وهو عند الراغب: "قولٌ في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليُبَيِّنَ أحدهما الآخرَ ويُصوِّره"[5]. ويرى الرازي أن المثلَ يؤثرُ في النفس مثلَ تأثير الدليلِ..[6].

وفي القرآن: "وتلكَ الأمثالُ نضربُها للناس لعلَّهُم يَتفكَّرُون"[7]. "وتلك الأمثالُ نضربها للناس وما يَعقلُها إلا العالِمون"[8]. "يا أيُّها الذين آمنوا ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له، إن الذين تدعونَ من دُون الله لن

---

[1] ـ الروم: 58/ الزمر : 27.
[2] ـ إبراهيم: 45.
[3] ـ البرهان 117-119. لابن وهب. وانظر بقية كلامه هناك.
[4] ـ البرهان 486/1 للزركشي عن كتاب الجدل في القرآن 232.
[5] ـ المفردات 700 وفي المرجع السابق 233.
[6] ـ الجدل في القرآن 232-233.
[7] ـ الحشر 11.
[8] ـ العنكبوت 43.

يخلقوا ذباباً ولو اجتَمعُوا له"[1].

والواقع أن المثل يُعتبر دعامةً كبرى من دعائم الخطابة لما يحققه من إقناع وتأثير، وإذا أخذناه بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه والاستعارة، ولن نفعل ذلك إلا في حدود ضيقة، صار أهمَّ دعائم هذه البلاغة[2].

واستعمل المثل التاريخي في القرآن استعمالاً واسعاً كما استعمل المثل التشبيهي، وهذا موضوع بحث خاص لا نَود الخوضَ فيه هنا كما استعمله القصاص فيما رَووا من أخبار الأمم، في تفسير آي الذكر وتحميس الجنود، وغير ذلك من الأغراض التي كانت وراء قصصهم، ثم استُعمل المثل على لسان الحيوان (المثل الخرافي)، فيما بعد، عند الكتاب، خاصة ابن المقفع.

وسنقصر اهتمامنا على الخطابة في القرن الأول الهجري، وفيها أمثلة جيدة لاستعمال المثل التاريخي خاصة حينما يضطر الخطيب لتبرير وضعيةٍ مُحرجة، كخطبة الحجاج بعد قتلِه ابنَ الزبير في الحَرم وجزع الناس لذلك. جاء في جمهرة خطب العرب (عن مصادره):

---

[1] ـ الحج 72-74.

[2] ـ هذا هو الاتجاه الذي سار فيه بيرلمان وأولبريشت. L. Olbrechets في كتابهما القيم: .Traité de l'argumentation في الفصل الثالث من هذا الكتاب فلينظر لأهميته. ولا شك أن مَنحى السكاكي في مفتاح العلوم ـ حيث ربط علم البيان (وعماده التشبيه والتمثيل والاستعارة) بعلم المعاني ، من جهة، وعلم الاستدلال من جهة ثانية ـ جدير بالتأمل كذلك. وقد بينا خطته ي كتابنا : البلاغة العربية اصولها وامتداداتها.

"ألاَ إن ابنَ الزُبير كان من أخيارِ هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازعَ فيها، وخلَع طاعةَ الله، واستكَنَّ بحرم الله. ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع آدمَ حرمةُ الجنة. لأن الله تعالى خلقهُ بيدِه، وأسجدَ له ملائكتَه، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجَه منها بخطيئته. وآدمُ على الله أكرمُ من ابن الزبير، والجنةُ أعظمُ حرمةً من الكعبة"[1].

فلكي يُهوِّن الحجاجُ من شأن قتل ابن الزبير في الحرَم عاد لقصة آدم وخروجه من الجنة. وتقوم رؤية الحجاج على مقالة تفصيلية ضمنية، من ثنائياتها:

ابن الزبير	آدم. وَ: آدم> ابن الزبير.
حَبر هذه الأمة	خلقه الله وأسجد له الملائكة.
الطمع في الخلافة	الأكل من شجرة الخلد
الخلافة	شجرة الخلد
مكة	الجنة. و : الجنة > مكة
الدولة (الخليفة + الحجاج)	الله. (خلع طاعة الله) + (التفويض الإلهي عند الأمويين)
القتل	الطرد من الجنة.

ويكمنُ الخللُ هنا في عدم التطابق بين المعطيات الأولى في المشبه به:

خلق اللهُ آدم + نعَّم الله آدم بشرط ألا يأكل من الشجرة، لم يف

---

[1] ـ جمهرة خطب العرب 287/2 أخذه عن سرح العيون 122 وتاريخ ابن عساكر 50/4.

بالشرط (أكل من الشجرة) فأُنزلَ به العقابُ.

والمعطيات المقابلة في المشبه:

اختلف ابنُ الزبير مع الدولة الأموية دون مَنٍّ منها أو التزامٍ منه.

قتل ابن الزبير لهذا الاختلاف. فهنا إيهام بالتشابه، وهو مقبول في الخطابة التي تقوم على الاحتمال والإمكان لا على اليقين. بل إنه لينطوي على مغالطة.

وكما استغل الحجاج قصة آدم في شأن ابن الزبير استغلَّ خالد القسري ــ وهو على مكة ــ قصة إبليس وعبادته لله ثم عصيانِه واستحقاقه للعقاب في شأن الحجاج عندما دارتْ عليه الدائرة، وأشارت إليه الأصابع. فقد "صعد خالدُ المنبر في يوم جمعة ــ وهو على مكة ــ فذكر الحجاج فحمد طاعته، وأثنى عليه خيراً. فلما كان في الجمعة الثانية وَرَدَ عليه كتاب سليمانَ ابنِ عبد الملك يأمرُه فيه بشتم الحجاج ونشر عُيوبه، وإظهار البراءة منه، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

"إن إبليسَ كان مَلَكاً من الملائكة، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة تَرى له به فضلا، وكان اللهُ قد عَلِم من غِشّه وخُبثه ما خَفِيَ على ملائكته. فلما أرادَ فضيحته أمره بالسجود لآدم فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم، فلَعَنوه. وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كُنّا نرى له به فضلاً، وكان الله قد أطلَعَ أمير المؤمنين من غِشه وخبثه على ما خفي علينا، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى

ذلك على يَدَي أمير المؤمنين، فلعنه، فالعنوه، لعنه الله. ثم نزل"[1].

ومن البين هنا أن الخطيب ركب مركب الغموض، إذ يمكن أن تتصرف اللعنة إلى الخليفة أسضاً، وهذا هو الأنسب لموقف الحرج الذي وقع فيه الخطيب..

ومالَ بعضُ الخطباء الأمويين إلى استعمال المثل القائم على الحكاية الخرافية، حين وجدوا تشابها بينها وبين الحالة التي يواجهونها. فقد "حج عبد الملك في بعض أعوامه فأمر للناس بالعطاء، فخرجت بَدرة مكتوب عليها: من الصدقة. فأبى أهلُ المدينة قبولَها، فقالوا: إنما كان عطاؤنا من الفَيْءِ، فقال عبد الملك، وهو على المنبر:

"يا معشر قريش، مثَلُنا ومثَلكم أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين، فنزلا في ظل شجرة تحت صَفاةٍ، فلما دنا الرواحُ خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً، فألقته إليهما، فقالا: إن هذا لمن كنز، فأقاما عليها ثلاثة أيام، كلَّ يومٍ تُخرج إليهما ديناراً، فقال أحدهما لصاحبه: إلى متى ننتظِرُ هذه الحية؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذَه، فنهاه أخوهُ، وقال:

ما تدري لعلكَ تَعطَبُ ولا تُدرك المالَ، فأبى عليه، وأخذ فأساً معه، ولم يقتُلْها، فثارت الحيةُ فقتلتْه، ورجعت إلى جُحرها، فقام أخوه فدفنه، وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحيةُ معصوباً رأسُها، ليسَ معها شيءٌ.

---

[1] - جمهرة خطب العرب 322/2 عن العقد 11/2.

فقال لها: يا هذه، إني والله ما رَضيتُ ما أصابك، ولقد نهيت أخي عن ذلك، فهل لك أن نجعل الله بيننا ألاّ تَضرّيني ولا أضرك، وترجعين إلى ما كنت عليه؟

قالت الحيةُ: لا.

قال: ولم ذلك؟

قالت: إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لي أبداً، وأنت ترى قبر أخيك، ونفسي لا تطيب لك أبداً وأنا أذكرُ هذه الشَّجَّةَ وأنشدهم شعرَ النابغة:

فقالت: أرى قبراً أراهُ مُقابلي   وضَربةَ فأسٍ فوقَ رأسِيَّ فاغِرهْ

فيا معشرَ قريش، وَلِيَكم عمرُ بن الخطاب، فكان فَظًّا غليظا مضيّقا عليكم، فسمعتم له وأطعتم، ثم وليكم عثمانُ، فكان سهْلا وعَدوتم عليه فقتلتموه. وبعثنا عليكم مُسلما، فقتلناكم، فنحن نعلم، يا معشر قريش، أنكم لا تحبوننا أبداً، وأنتم تذكرون يوم الحرة، ونحن لا نحبكم أبدا ونحن نذكرُ قتل عثمان[1].

ومن هذا القبيل خطبة النعمان بن بشير في أهل الكوفة وهي عبارة عن قصة احتكام الضبع والثعلب إلى الضب[2].

أما المثال التشبيهي فيقوم على الاستعارة والرمز بصفة عامة. من أمثلة ذلك هذا الحوار الطريف الذي دار بين ابن الزبير ومعاوية:

---

[1] ـ جمهرة خطب العرب 2/ 195-197 من مروج الذهب 129/2 ومسلم هو: مسلم بن عقبة المري صاحب وقعة الحرة، التي أباح فيها المدينة لجنوده ثلاثة أيام سنة 63هـ.

[2] ـ جمهرة خطب العرب 280/2 ومجمع الأمثال 13/2.

طلب ابن الزبير من معاوية التجاوز عن المهاجرين والأنصار واصطناعهم فقال معاوية:

"هيهات هيهات؟ لا والله ما تأمن النعجةُ الذئبَ وقد أكل أليتها'

فقال ابن الزبير: "مَهلا يا معاوية، فإن الشاة لتدر للحالب، وإن المُدْية في يده، وإن الرجل الأرِيبَ ليُصانع ولده الذي خرج من صُلبه، وما تدور الرحا إلا بقطبها، ولا تصلح القوسُ إلا بعجمِها.

فقال 'يا أبا خبيب لقد أجررت الطروقة قبل هباب الفحل.."[1]

والتمثل الموهمُ الحجيةَ حلقة بين الانسجام مع الداخل والانسجام مع الخارج. كما سيتبين بعده.

2 ـ الانسجام مع الخارج

تسمى الوسائل المستعملة في هذا الصدد عند أرسطو الحجج الجاهزة أو غير الصناعية. ويدخل في نطاقها القوانين والشهود والاعترافات وأقوال الحكماء، وتختص إجمالا بالخطابة القضائية.

ومنها في الخطابة العربية تضمين الآيات القرآنية والأحاديث وأبيات الشعر والأمثال والحكم. وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليه.

---

[1] ـ جمهرة خطب العرب 166/2.

جاء في البيان والتبيين:
"وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطّوال بشيء من الشعر، ولا يَكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء"[1] .

وتكون الأبيات المضمَّنة من الغريب وما سرى مسرى المثل والحكمة حسْبَما إذا رصدت للإرهاب والإغراب، كما في خطب الحجاج، أو التأثير والإقناع كما في الخطب الدينية.

"وقد جرى خطباء العرب منذُ العصر الجاهلي على التمثل بالشعر في خطبهم، وهي ظاهرة مميزة في الخطابة العربية". "وأكثر ما نجد التمثّل بالشعر في خطب بني أمية وولاتهم، وقَلّ أن نجده في خطب الخوارج والشيعة"[2].

وفي خطب الحجاج استشهادات شعرية كثيرة أحيانا كما في خطبته حين ولي الكوفة، وهي تساهم في بناء الخطبة فتدعم الصورة بما تشيعه من إغراب وإحالة على عالم خاص كما تدعم الصوت والإيقاع. وكان صالح المُرّي القاصُ العابدُ البليغُ كثيراً ما يُنشد في قصصه وفي مواعظه هذا البيت:

فبات يُرَوّي أصولَ الفسيل   فعاشَ الفسيلُ وماتَ الرجلُ

وأنشد الحسن في مجلسه، في قصصه وفي مواعظه:

ليسَ مَن ماتَ فاستراحَ بمَيْتٍ   إنّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأحْيَاء

---

1 ـ البيان 118/1.
2 ـ الخطابة العربية ج النص ص 198.

"وكانوا يستحسنون أن يكون في الخُطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آيٌ من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاءَ والوقار، والرقة وسلس الموقع[1]. وكان عمران بن حِطان خطب خُطبة أعجبَ بها الناس، ثم إنه مرَّ ببعض المجالس فسمع "رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطبُ العرب لو كان في خطبته شيءٌ من القرآن"[2].

ولم يكنِ الاقتباسُ من القرآن مقصوراً على الخطباء الدينيين بل استفادَ من إمكانية تأثير النص القرآني جميعُ الخطباء، على تفاوت في ذلك، فمن الخطباء من جعلوا المادة الأساسية في خطبهم ورسائلهم آياتٍ قرآنية كما في رسالة عثمان بن عفان للحجاج (وهي خطبة بواسطة).

بل نجد لمصعبُ بن الزبير خطبةً هي قرآن من أولها إلى آخرها، تتخللها إشارات إلى الجهات التي تُوجِّه إليها معاني الآيات القرآنية. قالها عندما ورد العراقَ والياً على البصرة من قبل أخيه عبد الله[3].

"بسم الله الرحمن الرحيم، طسم، تلكَ آيات الكتابِ المُبين نَتْلُو عليك من نَبَأِ موسى وفرعونَ لقوم يومنونَ، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا، يستضعفُ طائفةً منهم، يذبِّح أبناءَهم، ويستحيي نساءَهم، إنه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو أهل الشام). ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (وأشار نحو الحِجاز). ونُمكِّن لهم في الأرض

---

[1] - البيان 118/1.

[2] - نفسه.

[3] - البيان 2/299-300.

ونُرِيَ فرعونَ وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يُحْذرون (وأشار بيده نحو العراق)".

وتُشيعُ الأمثال في الخطب روحاً بدويا وذلك لارتباطها بحياة البادية. وقد اعتاد الناس تقبل مضامين الأمثال باعتبارها من خلاصة تجارب العُقلاء من الأجداد، وهي مُدعمة، في الغالب، بمجانسات صوتية تقوي الشعور بصحة محتواها.

وعموما فقد استعمل النص القرآني في الخطابة ثلاثة استعمالات:

أ ـ **الاحتجاج لقضية** مختلف فيها، كاحتجاج الحسن لحقه في الخلافة بقوله تعالى: "ومَن يقترفْ حسنةً نزدْ له فيها حُسنا". إذ قال: "فاقترافُ الحسنة مودتنا". باعتبار الآية صلةً لما قبلها. وهو قوله تعالى: "قُلْ لاَ أسألُكم عليهِ أجرًا إلا المَودَّةَ في القُربَى."

وهذا الاستعمالُ من خصوصيات المناظرة والاحتجاج (انظر مناظرة عمر بن عبد العزيز لغيلان).

ب ـ **تمثيلُ حالة مشابهة**، كما في استطراد الحجاج إلى قوله تعالى: "فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقُها رَغدًا من كُل مكان، فكفرتْ بأنعُم الله، فأذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يَصنَعون".

وهذا غالب في الخطابة السياسية والوعظية.

ج ـ **الاستئناس** وخلق جو ديني ، وهذه الوظيفة غالبةٌ في خطب المناسبات الدينية والاجتماعية كما يقول الجاحظ بحق: "وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يومَ الحفل، وفي الكلام يومَ الجُمَع

آي من القرآن، فإن ذلك يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع"[1].

والنص القرآني سلطة في خطب الشيعة خاصة، كما أن المعاني الدينية كثيرة الورود في خطب الخوارج. ويميل خطباء بني أمية إلى التمثل بالشعر (الوظيفة الثانية)، واستغلال إمكانياته الإيقاعية والبيانية والمعجمية في خلق جو من الإغراب مهيء للمستمع (الوظيفة الثالثة). وهذا ما نلاحظه بالرجوع إلى خطب الحجاج.

---

[1] ـ البيان 118/1.

الفصل الرابع

الأسلوب

تمهيد:

إن الأسلوب الذي كان جزءاً من بلاغة الخطاب عند اليونان[1] يحتل الصدارة في البلاغة العربية التي لم تميز بين الشعر والنثر إلا في بعض الجوانب مثل عدم التزام الوزن أو التطرق إلى موضوعات دون أخرى[2].

وتعود أهمية الأسلوب في نظر أرسطو إلى أن عامة الناس "يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي[3].

وتجميل الأسلوب يكون حسب المقام والجمهور الذي إليه الخطاب، وحسب نوع الخطاب مكتوباً كان أو شفوياً حواريا، يجب ألا ننسى أن لكل نوع خطابي أسلوباً خاصاً يليق به، فالأسلوب في الكتابة غيره في المناقشات، والأسلوب في الجماعات غيره في المحاكم، ولابد من معرفة كليهما.. وأسلوب الكتابة أدق، وأسلوب الحديث أشد حركة وتنازعا..

---

[1] ـ كان الأسلوب غائبا في تصنيف كواركس CORAX ، ثم ظهر عندما حاول جرجياس أن يطبق على النثر بعض المبادئ الجمالية المستقاة من الشعر، وأخذ مكانة أقل من غيره من عناصر الخطابة عند أرسطو. ثم تفتقت جوانبه عند اللاتين حتى ابتلع البلاغة كلها مشخصة في الصور البلاغية.
انظر مقال رولان بارث في مجلة Communication n.16 p.217.

[2] ـ العسكري الصناعتين. 157-154.

[3] ـ الخطابة الكتاب 3. وانظر النقد الأدبي 104/1 (ترجمة م صبحي). والنقد الأدبي الحديث لغنيمي هلال.

وإذا أجرينا المقارنة بدت لنا الأقوال المكتوبة ضيقة في المناقشات، أما خطب الخطباء حتى لو كانت أحدثت أثراً جميلاً لدى إلقائها فإنها تبدو بين الأيدي (أي عند القراءة) هزيلة، ذلك لأن مكانها الحقيقي هو في المناقشات. ولهذا فإن الأقوال الموضوعة للتأثير الخطابي إذا انتزع هذا منها لا تحدث نفس الأثر وتبدو ساذجة.."[1]

وحذف أدوات الوصل يشعر بكثرة المعاني المتحدث عنها، وكذا الترديد "فإن كثرة ترديد اسم يبدو كأنه قيل عنه الكثير"[2].

"والأسلوب المناسب للمحافل الشعبية يشبه تمام المشابهة رسم المنظور، فكلما زاد عدد المشاهدين بعدت النقطة التي منها يكون النظر، ولهذا فإن دقة التفاصيل لا داعي لها، وسيكون أثرها في الرسم كما في الخطبة رديئا. بيد أن الخطابة في ساحة القضاء تقتضي زيادة في التدقيق خصوصا إذا كان المرء أمام قاضٍ واحدٍ"[3]. ويلزم أن يكون الأسلوب "واضحا دون تَسفُّل"[4].

---

[1] ـ الخطابة 3 فصل 12 ص 225 (الترجمة القديمة تحقيق بدوي).

[2] ـ نفسه ص 227.

[3] ـ نفسه ص 227.

[4] ـ نفسه ص 228. حاولنا في كتابنا: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، استخراج أسس بلاغة الخطاب الإقناعي عند أرسطو في بعدها الأسلوبي فانتهينا إلى أنها بلاغة تقوم على **الوضوح والاعتدال**، وقد بلور ابن رشد بعد الفارابي وابن سينا، وفي ضوء عملهما، تصوراً أكثر دقة ووضوحاً لطبيعة الأسلوب في الخطابة مميزاً بين المبتذل والمستولي والغريب. فأسلوب الخطابة يقع في موقع بين الشعر ومبتذل القول، يأخذ المستولي من الإبداعات الشعرية، ويتحاشى المبتذل العامي (تلخيص الخطابة. والبلاغة العربية أصولها وامتداداتها 276-286).

وأهمية الأسلوب وبروزه في الخطابة العربيـة يعودان فـي نظرنـا إلى:

1)هيمنة الشعر الذي كان علمَ قوم لم يكـن لهـم علـم أصـح منـه. ومن الأكيد المعروف أن الشعر كان يؤدي الكثير من المهام الخطابيـة سواء في الصلح أو الحَمالات أو المخاصمات والمحاكمات وما سـوى ذلك من مشاكل الحياة الاجتماعية والسياسية العربية. ولعل أقرب تلك المحاكمات وأشهرها في تاريخ الأدب العربـي تلـك التـي جمعـت بيـن عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة أمام عمرو بن هند، تلك المحاكمة التـي اشـتهر فيهـا الحـارث بـن حـلزة بمراعـاة المقـام والاحتيـال فــي الاحتجاج، فقُضي له على خصمه الذي كان مُنفعلاً أميلَ إلى الحماسـة منه إلى الخطابة. ونورد هنا مقطعاً من مرافعة الحارث(1):

إن إخواننـــا الأراقِـــمَ يغلـــو	نَ علينـــا فـــي قولهـــم إحفـــاء
زَعموا أن كل من ضَرب العيـ	ـرَ مـــوال لنـــا، وأنـــا الـــوَلاء
أجمعـوا أمرهـــم عشـــاءً فلمـــا	أصبحـوا أصبحـتْ لهـم ضَوضـاء
من منادٍ ومن مُجيب ومـن تصـ	ـهـال خيـــل خـــلالَ ذاك رغـــاءُ

1) خوض الخطابة فـي الموضوعـات الشـعرية كالتعزيـة والشكر والوصف وما إلى ذلك مـن الموضوعـات الوجدانيـة التـي يعبر فيهـا الخطيب عن حالة نفسية أكثرَ مـن أي شـيء آخـر، والتـي قـد يضيـق عنها تعريف الخطابة عند أرسطو، وعند غيره.

1 ـ شرح المعلقات 212-213 (زوزني).

2) يضاف إلى ما سبق كون كثير من الخطباء شعراء أيضاً منهم قطري بن الفجاءة والكميت وآخرون.. ومن الخطباء من كانت لهم ثقافة أدبية واسعة قائمة على حفظ جيد الأشعار والأمثال مع حفظ القرآن والحديث، والحجاج أحسن من يمثل هذه الطائفة.

وعموما فإن الخطابة العربية نشأت في محيط شعري، بل ربما جاز القول بأنها أحد الأفلاك المنفصلة عن الشعر المشدودة إليه بجاذبية أسلوبية قوية. ونقتصر على تناول جانبين بارزين من البناء الفني للنص الخطابي: البناء الدلالي الدلالة والإيقاع.

1 ـ البناء الدلالي (أو تركيب المعاني)

"قال زياد يوما لحارثة بن بدر:

مَنْ أخطبُ الناسِ، أنا أو أنتَ؟

فقال: الأميرُ أخطبُ مني إذا توعَّد ووَعَد، وأعطى ومَنَع، وبَرق ورَعد.

وأنا أخطبُ منه، في الوِفادة، وفي الثناء، والتحبير.

وأنا أكذبُ إذا خطبت، فأحشو كلامي بزيادة مَليحة شهية. والأمير يقصد إلى الحق، وميزان العدلِ، ولا يزيدُ فيه شعيرة، ولا ينقصُ منه.

فقال له زياد: قاتلكَ الله لقد أجَدْتَ تخليصَ صفتِك وصِفتي من

حيث أعطيتَ نفسك الخطابةَ كلَّها، وأرضيتني وتخلّصتَ.

ثم التفت إلى أولاده فقال: هذا لعمركم البيان الصريح"[1]

من النظرة الأولى نلاحظ أن جواب حارثة شمل تمييزاً بين الموضوع والشكل، فالأميرُ أخطَب في الموضوعات التي تؤهلُهُ لها الإمارة، وحارثةُ أخطبُ في موضوعات التبعية للإمارة (الوِفادة والتحبير)، والأولى مشفوعةٌ بعنصر تأثير خارجي (التوعد والعطاء) في حين تفتقرّ الثانيةُ إلى هذا الدعم من الواقع الخارجي (الوعد والوعيد)، فلذلك تبحث عن عنصر استمالة في ذاتها، مما هو (شهي ومليح)..

فكان حارثة أخطبَ فيما يحشو به كلامَه من زيادات مليحة شهية، وكذبٍ فنيٍّ، وهذه عناصر أسلوبية، والأمير يقول ما يشاء في أسلوب مباشر لا يزيد فيه شعرةً.

وكان لابد أن ينتبه زياد، وهو أحد أبْيَناءِ الخطباء العرب وفحول الخطابة إلى أن حارثة ابن بدر قد أعطى نفسه الخطابة كلها في بيان صريح.

ـ فما هي طبيعة الكذب والزيادات الشهية في الخطابة التي هي فنٌ إقناع؟ وما حدود هذه الزيادات وذلك الكذب؟

إنها كل ما زاد على متطلبات التوصيل، دون أن يوقع في الغموض والبعد عن التأثير والإقناع.

---

[1] ـ الأغاني 461/23 (ثقافة)

ويمكن إرجاع جانب من ذلك إلى "الصورة البيانية" ابتداءً من النعوت والأوصاف إلى التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية.. كما يرجع جانب منها إلى المقابلة بين المعاني (الطباق) واختيار الألفاظ المعبرة.

وكان أرسطو قد اعتبر الاستعارة (بمعناها الواسع) عنصرَ إغراب يحدث الهيبة والعجب، "وما يحدث العجب يحدث اللذة"، والنثر البسيط (غير الموزون) يَستعمل هذه الوسائل في حدود، في حين تكون "الوقائعُ والأشخاصُ أشدَّ بعداً وغرابة" في الشعر[1]، غير أن الخطابة قائمة على مبدأ أساسي يكبح جِماح العنصر الاستعاري، وهو مبدأ الوضوح والوصول إلى أذهان المستمعين بدون حواجز. قال أبو عثمان الجاحظ: "ولا تجعلْ همّك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلص إلى غرائبِ المعاني، وفي الاقتصاد بلاغ"[2]. ولم يقف مَطلبُ الوضوح عند البلاغيين والنقاد العرب عند الخطابة بل اشترطوه في الشعر أيضا. فاختلفوا حولَ المبالغة والغلو والإغراق والإحالة[3]، ولم يستسيغوا إغراب أبي تمام. ولتحقيق مبدأ الوضوح اشترطوا لفصاحة الكلام الخُلوَّ من التعقيد والغريب والحوشي..الخ. وكل ما ينافي الطبع ويعوقُ إقتناع المستمع بصدق الخطيب. "ومن الأوصافِ التي إذا كانتْ في الخطيب سُمي سديداً، وكان من العيب مَعها بعيدا، أن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جاريا على سجيته،

---

[1] - الخطابة 3 فصل 2 ص 186 ويقصد الشعر المسرحي والملحمي.

[2] - البيان 255/1. انظر قراءة للبيان والتبيين في: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها.

[3] -. انظر نقد الشعر لقدامة. والعمدة لابن رشيق. وغيرهما من النقاد.

غير مستكره لطبيعته، ولا متكلف ما ليس في وسعه، فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجّنه وقبّح موقعه"[1].

وإذا ما نظرنا في المتن الخطابي في القرن الأول الهجري وجدنا الخطباء في الصدر الأول منه لا يهتمون بالانزياح الدلالي إلا نادراً، نستثني من ذلك بعض خطب السيدة عائشة، وبعضَ خطب علي بن أبي طالب، وهو استثناء يقتضي تساؤلاً لا نودُّ مناقشته هنا، وإن كنا لا نستطيع الاستشهادَ بما يشذُّ عن التيار والطابع العام إلا لإظهار تميزه[2]. يضاف إلى ذلك وصف الأسد لأبي زبيد الطائي الذي لا نستبعد أن تكون كتابته قد أُعيدتْ في عصر المقامات. وفي بعض خطب عثمان عناية بالجانب البياني وسَطٌ بين النزعتين. من ذلك خطبته التالية، حين نقم عليه الناس ما نقموا قال:

"أما بعدُ فإن لكل شيءٍ آفةً، وإن لكُل نعمةٍ عاهةً، وإن آفة هذه الأمة، وعاهة هذه النِّعمة، عيابونَ ظنانون، يُظهرون لكم ما تُحبون، ويُسرون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، طَغامٌ[3] مثلُ النعام، يتبعون أولَ ناعق. أحبُّ مواردهم إليهم النازحُ[4]، لا يشربون إلا نَغَصاً[5]، ولا يردون إلا عكراً، ولا يقوم لهم رائد، وقد أعيتهم الأمور، وتعذرت عليهم المكاسب.

---

[1] ـ البرهان في وجوه البيان 92.

[2] ـ انظر خطبتي السيدة عائشة في الجمهرة 306/1-307، 208/1.

[3] ـ الطَّغامُ: أوغاد الناس وأرذلهم، مفرده طَغامة.

[4] ـ النازح: الذي غاض ماؤه.

[5] ـ شرب نَغَصاً: لم يتم شربه.

لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علي، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده، ووَقَمَكُم[1]، وقَمَعَكم، وزَجرَكم زَجْرَ النعام المخزَمة[2]، فدِنتُم له على ما أحببتم أو كرهتم. ولِنتُ لكم، وأوطأتُ لكم كتفي، وكففتُ يدي ولساني عنكم، فاجترَأتُم عَلَيَّ.."[3].

ففي النص مجموعةٌ من التشبيهات والاستعارات والكنايات، وإن كانت في أغلبها مُستعملةً (عاميةً) يَمزج فيها الخطيبُ بين عالم الإنسان المتمرد المشاغب وعالَم الحيوان الشارد النافر الذي لا يستقيم أمرُه إلا بالوقْمِ والقَمْعِ. وظلتْ هذه الصورةُ تترددُ في خُطب بني أمية، وبوجه آخر (الاحتجاج والشكوى) في أدب الشيعة[4].

ونجد في العصر الأموي طائفة من الخطباء الفحول يهتمون

---

[1] - وقم الدابة: جذب عنانها، أي قهر وأذل،

[2] - قمعه: ضربه بالمِقْمعة. خزم البعير: جعل الخزامة في جانب من منخره.

[3] - الجمهرة 273/1 عن تاريخ الطبري 97/5، والبيان 200/1.

[4] - وفيه تصويرُ الشيعة بالرعية التي لم يُحسَن تدبيرُ أمرها، يقول الكميت مقارنا بين أئمة الشيعة وحكام بني أمية:

سَاسَةٌ، لاَ كَمَنْ يَرْعَى النَّا ... سَ سَوَاءً وَرَعِيَّةَ الأَغْنَامِ
لاَ كَعَبْدِ، المَلِيكِ أَوْ كَوَلِيدِ، ... أَوْ كَسُلَيْمَانَ بَعْدُ، أَوْ كَهِشَامِ
رَأْيُهُ فِيهِمْ كَرَأْيِ ذَوِي الثُّلْـ ... ـلَةِ فِي الثَّائِجَاتِ جُنْحَ الظَّلاَمِ
جَزُّ ذِي الصُّوفِ وَانْتِقَاءٌ لِذِي المُخْـ ... ـخَةِ، ونَعْقاً وَدَعْدَعاً بالبِهَامِ
مَنْ يَمُتْ لاَ يَمُتْ فَقِيداً، وَإِنْ يَحْيَـ ... ـى فَلاَ ذُو إِلٍّ وَلاَ ذُو ذِمَامِ

(الهاشميات 7-8)

وقال في البائية:

رِدَافًا عَلَيْنَا لَمْ يُسِيمُوا رَعِيَّةً ... وَهَمُّهُمُ أَنْ يَمْتَرُوهَا فَيَحْلُبُوا.
لَنَا قَائِدٌ مِنْهُمْ عَنِيفٌ وَسَائِقٌ ... يُقَحِّمُنَا تِلْكَ الجَرَاثِيمَ مُتْعِبُ

(الهاشميات 19)

بالتصوير، وتبرز مقدرتهم الفائقة في استعماله، منهم الحَجّاج وعمرو بنُ سعيد الأشدق، وعُتبة بن أبي سفيان. وليست الصورة عند أمثال هؤلاء عنصراً مساعداً لأفكار وحجج قائمة بذاتها، على الدوام، بل كثيرا ما كانت الصورةُ، هي المادة والشكل، هي الموضوع والحُجة، نجد من نماذج ذلك قول الحجاج بعد قتل ابن الزبير:

"موجُ ليلِ التطم وانجلى بضوْء صُبحه. يا أهلَ الحجاز، كيف رأيتموني؟ ألم أكشف ظُلمة الجور، وطُخْية الباطل بنور الحق؟ والله لقد وطِئَكم الحجاجُ وطأة مُشفق، وعطفةَ رَحم، ووصْل قرابة. فإياكم أن تنزلوا عن سنن أقمْناكم عليه، فأقطعَ عنكم ما وصلته لكم، بالصارم البتار، وأقيمَ من أوَدِكُمْ ما يقيم المثقّف من أوَدِ القناة بالنار"[1]. ثم نزل وهو يقول:

أخُو الحَربِ إن عَضّتْ به الحَربُ عضّها

وإنْ شَمّرتْ عنْ ساقها الحَربُ شَمّرا

وتقوم الخطبة على المقابلة بين حالين: حالة الليل والظلام والباطل من جهة، وحالة الصبح والضوء ونور الحق من جهة ثانية..الخ دون اهتمام بإقامة الحجة على صحة ما يقول، أي دون فحصٍ للمحتوى. وهذا بخلاف حديثه في خطبةٍ أخرى اقتضت مناسبتُها استعمالَ المثال التاريخي لتبرير الفتك بابن الزبير، وقد عرضنا لها فيما سبق.

ولاشك أن الحجاج قد استفادَ في بناء هذه الخطبة من صور تتردد في ذاكرته، ويحسبها خياله على الواقع الجديد، مصدرُها الشعر القديم

---

[1] ـ جمهرة خطب العرب 2/287-288. والطخية: الظلمة.

والنصوص الإسلامية.

فحديثه عن الإخراج من الظلمة إلى النور ينظر إلى مِنّةِ الإسلام المترددة في القرآن باعتباره منقذا للعرب من (جاهليتهم)، فلَعَلّ الحجاجَ كان يُحس بنشوة النبوة وهو يفتح مكة، ولعله تذكر فتحَ الرسولِ لها. ولعله تذكر عفوَ الرسول، فوطِئَ القومَ "وطأةَ مُشفق".. وقد نجد هذا الشعور بالفتح في حديثه عن "السَّنن" الذي أقامهم عليه، ثم في ذكره النار عِقاباً لمن حاد عن الطريق.

لعل الحجاج في غمرة نشوة الانتصار حاول أن يَجُرَّ مستمعيه إلى هذا الجو ليشعرهم بالذنب. وهو يتحول من جبار مجترئ على الحرم إلى فاتح هادٍ؛ يُخرج من الظلمات إلى النور ويقيم على السنة..

وكما تقدم التصويرُ في هذه الخطبة عنصرَ الإقناع المنطقي تقدم كذلك عنصرَ الإيقاع الذي صار إلى الدرجة الثانية متنازلا عن السجع مكتفيا بالموازنات.. وهذا بخلاف حرصه على الموازنة بين الصورة والإيقاع في خطبته في أهل الكوفة التي استهلها ببيتِ شعرٍ: "أنا ابن جلا"، ثم حشد فيها مجموعة من التشابيه والاستعارات والكنايات والأوصاف المشخصة. فالتشبيه يستحوذ على الفقرة التالية:

"أما والله لألْحُوَنّكُمْ لحْوَ العصا، ولأقْرَعَنّكُمْ قرعَ المَرْوَة، ولأعْصبنّكم عصب السَّلَمة، ولأضربنّكم ضربَ غرائبِ الإبل، فإنكم لكأهل قرية.. يصنعون". ومنه قوله: "ولا يغمز جانبي كتغماز التين".

ونجد الاستعارة في قوله: "رؤوساً قد أينعتْ، وحان قطافها"،

"معدن الشقاق والنفاق"، "فررت عن ذكاء"، "نثر كنانته بين يديه فوجدني أمرها عُودا"، "أوضعتُم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال"، "أحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله". ومن الكناية: "وما يقعقع لي بالشنان"،

ثم هناك الوصف المادي المباشر: "الدماء بين العمائم واللحي... "

وتنقلنا الشواهدُ الشعرية المختلفة إلى عالم الرحلة الشاقة المضنية في الصحراء حيث يدفعُ السواق الحُطَمُ (أي الحجاجُ نفسُه) الإبل (أهل الكوفة بالتحديد) في مجاهل الصحراء بدون شفقة، وهي أبيات تُعلن الحربَ على أهل الكوفة. وتدعوهم إلى التشمير عن ساعد الجد[1].

وقد تكون الصورة مركبة كثيفة توازي واقعاً لا يصرح به، إما لكونه معروفاً مستهلكاً، أو للرغبة في إخراجه مَخرجاً مختلفاً. فهذا عمرو بن سعيد الأشدق يُعيدُ قراءةَ حَدَثي (مجلس الشورى) و (الفتنة الكبرى) دون أن يذكر الوقائع بأسمائها، وذلك في جمهور أهل مكة الذين أساءوا استقباله عند توليته عليهم، إذ بدأ خطبته بذكر الرسول وأبي بكر وعمر بإيجاز شديد، ثم قال:

"ثم أُجيلتْ قِداحٌ، نُزعن من شعاب، جولةَ سعة، ففاز بحظيها أصلبُها، وأعتقُها، فكنا بعضَ قِداحها، ثم شَرج أمر بين أمرين، فقتلنا وقُتلنا، فوالله ما نَزعنا ولا نُزِعَ عنا، حتى شرب الدَّمُ دماً، وأكل اللحمُ لحماً، وقرعَ العظمُ عظماً، وعاد الحرامُ حلالاً، وأُسكت كل ذي حس

[1] ـ انظر حديثنا عن الإيقاع بعده لترى مدى غنى النص من جانب الإيقاع كذلك. والنص كاملا في "الملحق".

عن ضـرب مهند عَركـاً عَركـاً، وعسـفا عسفا، وخَزا ونهشا، حتـى طابوا عن حقنا نفسا"[1].

إن استخراجَ الصـور الجزئيـة المكونـة لهـذه الصـورة المركبـة يقتضي أولا، التعرف على المعاني المعجمية لكلماتها.

[- **القدح**: السهم قبل أن يُنصل ويراش.

- **الميسر**: القمار بالقداح.

- **المِجوَل**: "ثوب أبيض يُحمل على يد الرجل الذي يَدفع إليه الايسار القداحَ إذا تجمعوا" (اللسان: جال)، وفيه: "والإجالة: الإدارة يقال في الميسر". وفيه: "وأجال السّهام بين يدي القوم: حركها وأفضى بها إلى القسمة.."

- "**تشعبت أغصان الشجرة**، وانشعبت: انتشرت وتفرعت.. والشعبة من الشجر : ما تفرق من أغصانها" (اللسان: شعب). "وشُعَبُ الغصن: أطرافُه المتفرقة".

- **الشريج**: العودُ يشق منه قوسان، فكل واحد منهما شريج، وقيل الشريج القوس المنشقة. وجمعها شرائج انشرجت إذا انشقت، (اللسان: شرج)

- **الحظي**: ذو المنزلة. والحظوة سهم صغير بقدر ذراع، وقيل يلعب به الصبيان. وفي المثل: "إحدى حُظيات لُقمان"، قال الأزهري: إحدى دواهيه". (اللسان: حظي).

- "**والعَسْفُ**، في الأصل: أن يأخذ المسافرُ على غير طريق

---

[1] - الجمهرة 230/2.

ولاجادة، فنُقِلَ إلى الظلم والجور". (اللسان: عسف).

ـ **النهسُ**: "القبض على اللحم ونترُه.. والشين لغة.. نهس اللحم: أخذه بمقدم الأسنان. والنهش : الأخذ بجميعها" (اللسان: نهس).

ـ "**عَرَكَ** الأديمَ وغيرَه يعرِكُه عركاً: دلكه دلكا.. حكه حتى عفَّاهُ.. وعركه الدهر حنَّكه". (اللسان: عرك).

ـ "**والحَس**: القتل الذريع" ويروى بالشين (اللسان: حس). والحِس: الحركة، أو هو من الحركة. والحِس من الصوت" (نفسه)"].

1ـ يلاحظ من هذا الشرح أن الخطيب قد عاد بمستمعيه إلى عالم الميسر، ليقابل بين وقائع اللعبة ووقائع الصراع من أجل الخلافة في تناظر تام. إنها لعبة فيها الرابح والخاسر ومن يلْعبها يواجهُهُما معا، فليكن ذا روح رياضية أو قِمارية:

معجم القمار	معجم الحكم(السياسة)
القِداح	أعضاء مجلس الشورى.
أحيلت	تداولت
نزعت من	اختيار أعضاء المجلس من فروع متباعدة من، شجرة.
شعاب	/ قريش
جولة سعة	مداولة مطولة
أصلبُها (القداح)	عثمان أصلبُ المرشحين
حظيُّ القداح	الخلافة (الذي ربح الخلافة)
ثم انشق هذا	

القدح عن نفسه / اختلاف بني أمية وبني هاشم.
(شرج)

2ـ مع هذه الصورة المركبة نجد مجموعة من الاستعارات والكنايات: شربَ الدمُ دماً، وأكلُ اللحمُ لحماً، وقرع العظمُ عظما. وأُسكِت كل ذي حس..الخ

وصورة الميسر هذه هي اللغة المناسبة لأهل مكة الذين يحملون من الأنفة والكبرياء ما جعلهم يتقاعسون عن استقبال الوالي ويهونون أمره. ويهمنا هنا أن نلاحظ أن الصورة تقومُ مقامَ الحجة وتعوّضها تبعاً لحال المخاطب. والتصوير في الخطب الوصفية السياسية ذات الطابع الحماسي أوفرُ وأبدعُ منه في الخطابة التعليمية والمناظرات التي تعتمد في الغالب على توصيل الفكرة في عبارة شفافة مدعومة بالحجة في المناظرات، وبالمثال في الخطابة التعليمية.

أما الخطابة الوعظية فصورها مكرورة تدور حول زوال الدنيا وغرورها وبقاء الآخرة: فالدنيا متاع يُباع لتشترى به الآخرة:
"يا ابنَ آدم، بع دنياكَ بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبعْ آخرتَك بدنياك فتخسرَهُما جميعا"[1].
و"الدنيا دار غرور، ومنزل باطل"[2]،
و"الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار، فخذوا من دار ممركم، لدار مقركم"[3]. **ويُعوّضُ التصوير في الخطب الوعظية بالمقابلات**

---

1 ـ الحسن البصري الجمهرة 485/2.
2 ـ سليمان بن عبد الملك العقد 91/4 عن النص 215.
3 ـ سحبان بن زفر الوائلي (ت54هـ) الجمهرة 482/2 عن سرج العيون ـ 95.

المعنوية بين عالم زائل وعالم باق، بين الأوائل والأواخر، بين الاستقامة والجور، بين الطاعة والعصيان، والظلم والإنصاف.

"أما بعدُ، يا أميرَ المؤمنين، فكأن الذي كان لم يكن، وكأن الذي هو كائن قد نزلْ. واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر وإن أذاقك تعجيلَ مرارته، فلنعم ما أعقبك من طيبِ حلاوته وحسن عاقبته. وأن الهوى وإن أذاقك طعمَ حلاوته فلبئس ما أعقبكَ من مرارتِه وسوءِ عاقبته"[1].

على أن الخطباء الكبار إذا ما بدا لهم بناء خطبة على المقابلات المعنوية فإنهم يحرصون على تقديم تلك المعاني في صور مجازية، وفواصل متوازنة كما في قول الحجاج يتهدد أهل العراق:

"أيها الناسُ، من أعياه داؤُه، فعندي دواؤُه.. ومن ثقُل عليه رأسُه، وضعتُ عنه ثقله.. إن للشيطان طيْفاً، وللسلطان سيفا، فمن سَقُمَتْ سريرتُه صحتْ عقوبتُه، ومن وضعَه ذنبُه، رفعه صلبُه، ومن لم تسعْهُ العافيةُ لم تضق عنه الهَلَكَةُ.. إن الحزمَ والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني به سيفي"[2] .

---

1 ـ الحسن البصري يخاطب عمر بن عبد العزيز. الجمهرة 497/2.

2 ـ الجمهرة 292/2.

2 - البنية الصوتية
أو
إيقاع النص الخطابي(1)

يضع أرسطو الصناعة الصوتية في الخطابة في منزلة وسَط بين النظم المُطرِدِ الوزنِ والنثر المرسل. فيرى أن "شكل المقالة ينبغي أن يكون غير ذي وزن ولا عدد، فإن ذلك النحو غير مقنع، لأنه يظن أنه مختلق أو يراد به التعجب.. فأما الاسم اللا موزون (بدوي: الذي بدون إيقاع) أي السخيف فإنه لا متناه (بدوي: غير محدد)، وينبغي أن يكون متناهيا بشيء وليس بوزن، فإن الذي لا يتناهى ليس بلذي، وهو خفي مشكل، فقد ينبغي لذلك أن يكون للكلام تبرات[2] وأما وزن فلا"(3).

فالنثر الخطابي ينبغي إذن أن يكون إيقاعياً غير مطرد الوزن ولذلك يفضل أرسطو العبارة المقسمة المتقابلة على العبارة المسترسلة، أي يفضل العبارة التي يدرك الطَّرف نهايتها، "وذلك أن الكل يسرون إذا رأوا النهاية. "وقد ينبغي أن يكون للعطف وللمعنى

---

[1] ـ أنجزت، بعد صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب، دراسة موسعة للبنية الصوتية في الشعر العربي والبلاغة، حاولت فيها بلورة كل صور التوازن حول التجنيس والترصيع (أنظر: 1) تحليل الخطاب الشعري البنية الصوتية، 2) واتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي. 3) والموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية).

[2] ـ النبرة = أي إيقاع.

[3] ـ الخطابة 3 فصل 8 (تحقيق بدوي). وانظر ابن رشد تلخيص 283-284.

معا منتهى. وألا يكونا يتقاطعان كمثل الشعر الأيامبو الوزن"[1].

والسجع في البلاغة العربية من أهم الظواهر الأسلوبية في النثر، وهو يعطي الكلام مكانة أقرب إلى الرجز والقصيد وإن كان دونهما، كما يقول الجاحظ: "السجعُ والمزدوِجُ دون القصيد والرجز"[2]. وينبغي "أن يكون في بعض الكلام لا في جمعيه، فإن السجع في الكلام (كما يقول ابن وهب) كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غيرَ مستغنًى عنها، والسجع مستغنى عنه"[3]. ويؤكد ابن وهب بكلامه هذا المنزلة الوسط التي يحتلها الكلام البليغ الذي ليس شعراً. وكان يكفي القدماء أن يتحدثوا عن اطراد الوزن أو القافية للتفريق بين النثر الفني (المصنوع) والنظم الشعري، الشيء الذي لم يعد ممكنا اليوم بعد ظهور تجربة الشعر الحر[4]، بل قصيدة النثر.

وقد رفض البلاغيون العرب اطرادَ السجع والجناس وغيرِهما من المحسنات اللفظية لما ينم عنه ذلك من تكلف يعوق الوظيفة الإبلاغية للخطاب، فظهور التكلف منافٍ لغرض الإقناع الذي تستهدفه الخطابة. ومع ذلك فـَ "لا يحسُن منثورُ الكلام ولا يحلو حتى يكونَ مزدوِجا، ولا تكاد تجدُ لبليغٍ كلاماً يخلو من الازدواج"[5].

والازدواج والتوازن والترصيع وغيرُهما من المصطلحات

---

1 ـ الخطابة 3 فصل 9 نفسه.

2 ـ البيان 288/1.

3 ـ البرهان 165.

4 ـ انظر محاولة جان كوهن التفريق بين النظم والنثر في كتابه (بنية اللغة الشعرية) الفصل الثاني.

5 ـ الصناعتين 283 (ت قميحة).

الصوتية مراتبُ حسَب توافق طرفي الفاصلتين (أو القرينتين) "في عدد الحروف والحركات والسكنات مع توافق الأعجاز أو تقاربها.

... نحو "إن الأبرارَ لفي نعيم، وإن الفُجارَ لفي جحيم".. (ونحو) "آتيناهما الكتابَ المُستبين، وهديناهما السراط المستقيم". وإن لم تكن ألفاظ إحديهما مثل الألفاظ الأخرى في الوزن والتقفية سمي سجعا متوازنا.. نحو "فيها سُرر مرفوعةٌ، وأكوابٌ موضوعة".. والمرسلات عرفا، فالعاصفات عَصفاً".. وحصل الناطقُ والصامتُ، وهلك الحاسدُ والشامت. أو لا يكون لكلّ كلمة من إحدى القرينتين مقابلٌ من أخرى، نحو: "إنا أعطيناك الكوثرَ، فصلّ لربك وانحر".. قال بعضُهم أحسنُ السجع ما تساوت قرائنه، ثم ما طالت قرينته الثانية أو الثالثة"[1].

ويجعل القلقشندي التوازن في مرتبتين: "الأولى أن يراعى الوزن في جميع الكلمات أو في أكثرها مع مقابلة الكلمة بما يعادلها وزنا ويسمى التوازن، وهو أحسنها وأعلاها كالآية: "وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم"، والمرتبة الثانية ألاّ يراعى التوازن إلا في الكلمتين الأخيرتين كالآية: "ومَنْ أعرَض عنه فإنه يحملُ يومَ القيامة وِزراً، خالدين فيها، وساءَ لهم يوم القيامة حِملا"[2].

ومن جهة نظر التوازي وتقابل الأزواج في التركيب النحوي يبدو تقسيم سمويل ليفين الازدواجَ إلى مُقارَن ومُتوازِنٍ صالحاً للتطبيق على الازدواج والسجع في الخطابة العربية[3]. ويمكن تقسيم الخطابة

---

1 ـ شرح الفوائد الغياثية 282.

2 ـ صبح الأعشى 272 ونقله في تطور الأساليب النثرية 143-144.

3 ـ انظر الفصل الخاص بالشعر Nicolas Ruwer: Langage, musique et

فــي القــرن الأول حســب العنصــر الصــوتــي الإيقــاعي إلــى ثلاثــة مستويات:

أ ـ خطب كثيفة الصناعة : مسجوعة.

ب ـ خطب متوسطة الصناعة : بين السجع والازدواج.

ج ـ خطب مرسلة، قليلة الصناعة.

أ ـ الخطب المسجوعة

إن السجع المرصع هو طابع أغلب ما وصلنا من خطب الجاهليين خاصة سجعَ الكهان. وخطب الوعظ والتأمل في الكون والفناء. وهو، في أكثره، ترصيع بأمثال. ويضاهيه في ذلك ما نُسب إلى المتنبئين من نثر في صدر الإسلام. ومن ذلك ما نسب للكاهن الخزاعي عبد عمرو بن الحَمِق في الحكومة بين هاشم ابن عبد مناف وأميةَ بن عبد شمس بن عبد مناف. وقد نفَّرَ هاشماً في حكومته تلك ونصُّها:

"والقمرِ الباهرْ، والكوكبِ الزاهرْ، والغَمامِ الماطرْ، وما بالجو من طائرْ، وما اهتدى بعلم مُسافرْ، من مُنْجِدٍ وغائر، لقد سبقَ هاشمُ أميةَ إلى المآثرْ، أولٌ منه وآخرْ، وأبو همهمة بذلك خَابرْ"[1].

وكـان هـذا الصنـف مـن السـجع الصـارم يتنفس فـي فضـاء دينـي تَنَبّئي..[2]

وفـي العصـر الأمـوي كـان المختـار الثقفـي يدعـي تلقـي الوحــي، فيصطنع (لوحيه) فواصل قصاراً مسجوعةً متوازنـة توازنـاً صارمـا.

---

poésie.

[1] ـ جمهرة خطب العرب 78/1.

[2] ـ لا نريد أن نعرض هنا للسور المكية.

كقوله:

"أما وربّ البحارِ، والنخيل والأشجارِ، والمَهامه والقفارِ، والملائكة الأبرار، والمُصطفين الأخيار، لأقتلنّ كلّ جبار، بكل لذنٍ خطار، ومُهند بتار، في جموع من الأنصار، ليسوا بميلٍ أغمارُ، ولا بعُزّل أشرار، حتى إذا أقمتُ عمود الدين، ورأبتُ شَعْبَ صدع المُسلمين، وشفيتُ غليلَ صدر المؤمنين، وأدركتُ بثأر النبيين، لم يكبر علي زوالُ الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى"[1].

وهذا الارتباط بين الدين والكهانة وبين الصناعة الصوتية يبين الوظيفة للإقناع الإقناعية. ذلك أن توقيع الكلام وتوازنه يكاد يكون حجة على صدقه. وهذا ملحوظ في الأمثال والحِكم التي ينذرُ أن تكون غير مسجوعة موزونة.

ولعل الحَكَمَ بين أبي الأسود وزوجته انتبه إلى محاولة أبي الأسود التأثيرَ عليه بتوقيعِ كلامه، فقال له: "أرْدُدْ على المرأة ولدَها ودَعني من سجعك"[2]. ويرى إحسان النص، بحق، أن "السجع في الخُطب الدينية أكثر شيوعاً، بوجه عام، منه في الخطب السياسية"[3]. ويقترح لتفسير ذلك تأثُّر الخطباء الدينيين بالأسلوب القُرآني، وكذا قلة حظ الخطب الدينية من "طرافة الأفكار وجِدتها" مقارنة بالخطب السياسية: "فلابد من اللجوء إلى الزخرف اللفظي للتعويض عن الفقر في الناحية الفكرية". ويحيل على خطب الحسن البصريعامة، وعلى الموعظة المنسوبة، إلى قطري بن الفُجاءة، كما يحيلُ على خطبة واصل بن عطاء المنزوعة الراء.

1 ـ الطبري.

2 ـ تقدمت في "مقامات الخطابة الاجتماعية".

3 ـ الخطابة العربية 222.

على أن هذا لا ينبغي أن ينسينا الوظائف الأساسية للإيقاع، وقد أشرنا إلى بعضها. ونضيف هنا الوظيفة التَّذَكُّرِيَّةِ التي كان خطباءُ العصر على وَعْيٍ بها، فقد سُئل الفضلُ بن عيسى الرَّقاشي - وهو من أسرة فارسية من القصاص - عن إيثاره للسجع الموزون، فأجاب:

"إن كلامي لو كُنتُ لا آملُ فيه إلا سماعَ الشاهد لقل خلافي عليك. ولكني أريد الغائبَ والحاضرَ، والراهنَ الغابرَ، فالحفظُ إليه أسرعُ، والآذانُ لسماعه أنشطُ، وهو أحق بالتقليد وقلة التَّفَلُّت"[1].

وكان الفضلُ، إلى ذلك، واعيا بالوظيفة الإقناعية للصنعة الصوتية، فقد سُئل عن استهجان الرسول للسجع في قوله: "أسجعٌ كسجع الجاهلية؟" فأجاب: "لو أن المتكلم لم يرد إلا إقامةً لهذا الوزن لما كان عليه بأس، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق فتشادق في الكلام"[2]. وربما كان تكلُّف السجع والتزامُه بصرامة مُستهجنا في الصدر الأول لما أثير عن الرسول من استهجان السجع الذي يشبه سجع الكهان. كما نسب إلى عمرَ بن الخطاب إنكارُ قول صُحار بن فلان العبدي في وصف بلاد مُكران:

"أرضٌ سهلُها جبل، وماؤها وَشَل، وثمرُها دَقَل، وعدوُّها بطل. وخيرُها قليل، وشرُّها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وما وَراءَها شر منها".

فقال له عمر: "أسجَّاع أنت أم مخبر؟

قال: لا بل مخبر"[3].

ولكن هذا الخبرَ نفسه يؤكد وجود هذا السجع، كما يؤكده قول

---

[1] - البيان 287/1.

[2] - البيان 287/1.

[3] - الطبري 182/4.

الجاحظ: "وقد كانت الخطباءُ تتكلم عند الخُلفاء الراشدين فيكون في تلك الخطب أسجاعٌ كثيرة، فلا ينهونهم"[1].

ونجد حرصاً على التوازن الصوتي الازدواجي والسجعي في بعض الخُطب الاجتماعية والوصفية التي خاضت في موضوعات شعرية كالتعزية، والتهنئة والوصف.

ب - خطب بين السجع والازدواج (متوسطة الصناعة الصوتية).

الاتجاه الثاني يزاوج بين الصنعة الصوتية وغيرها من المقومات الأخرى[2] ويقيم إيقاعه على موازنات تتراوح بين الازدواج والسجع مع تفاوت بين الفواصل أحيانا والتخلي عن القوافي أحيانا أخرى، بل ينصرف الخطيب من حين لآخر إلى الفكرة فيسترسل معها دون مراعاة للموازنة بين الفواصل.. وهذا هو الاتجاه الغالب في خطب الحجاج وأبي حمزة وزياد وغيرهم من أعلام الخطابة السياسية. فهؤلاء الخطباء على اعتنائهم بالإيقاع العام للخطبة حريصون جداً على تبليغ الرسالة والتسلسل الطبيعي للمعاني والصور، ولذلك نجد خطبهم تسير في فقرات معنوية ازدواجية أو سجعية يتلو بعضُها بعضا، تتقدم كُل واحدة منها مقدمةٌ يلتقط فيها الخطيب خيط المعنى ثم

---

[1] - البيان 290/1.

[2] - سميناه هذا الاتجاه - لاحقاً - في كتابنا: اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم: "الاتجاه التكاملي". وسميناه الاتجاه الأول: "الاتجاه التراكمي".

يحوكهُ حياكة جديدة في فواصل جديدة، فتتكوّن أزواج متوازنة توازنا مُقارناً[1] بالنسبة لعنصر مشترك نعود إليه، على نحو قول الحجاج[2]:

1) "يا أهل الكوفة أما، والله، إني لأحمل الشرَّ بحمله، وأحذُوه بنعله، وأجزيه بمثله.

2) وإني لأرى أبصاراً طامحة، ورؤوساً قد أينعت وحانَ قطافُها، وإني لصاحبها".

فهناك مُمَهِّدٌ مُشتركٌ بين الفقرتين:

"يا أهل الكوفة أما والله إني".

وللفقرة الثانية ممهد داخلي خاص بها:

"لأرى" الذي صار مُضمراً في القرينة التالية لها "رؤوسا..". ويقومُ الازدواج في هذه الفقرات على الموازاة بين التراكيب النحوية المتعادلة، مع مرونة تتجلى في تعويض الظاهر بالضمير، وتغيير التركيب داخل الفقرة الواحدة أو الزيادة في عناصره، وذلك شأن الفاصلة: "ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها" التي يجوز شقها إلى فاصلتين: " ورؤوسا قد أينعت، وحان قطافها". تتجاوبُ الأولى ازدواجاً مع: "لأرى أبصاراً طامحة"، والثانيةَ مع: "وإني لصاحبها". ويلاحظ تحرر الخطيب بعد هاتين الفقرتين من الموازنات الصوتية لصالح عنصر بنائي من مستوى آخر هو عنصر الصورة:

3) وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي تترقرق. وقد

---

[1] ـ حسب نظرية ليفين في الازدواج المقارن والمتوازن. استثمرنا لاحقاً وجهة نظرسمويل ليفن في كتابنا: تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية، مع تعديل اقتضاه المردود الصوتي للتوازي النحوي في اللغة العربية.

[2] ـ انظر نص خطبة الحجاج التي نتتبع أنساق التوازن فيها في الملحق.

مضى الحديث عن هذا المستوى.

وينوع الخطيب قافية أسجاعه من فقرة لفقرة (بين المثالين 1و2 مثلا)، كما لا يتردد في تنويعها داخل الفقرة الواحدة إذا اقتضى الأمر ذلك كما في المثال (2) وقد غير فيه أيضا النموذج التركيبي كما سبقت الإشارة.

ويندر أن تكون الموازنة أقوى مما سبق، أي أن يقع فيها ترصيع وموازاة تامة بين الفواصل: "سفكتُ دمه، ونهبتُ ماله، وهدمتُ منزله". وهذا هو الازدواج المتوازن عند ليفين حيث تتقابل المقولات النحوية بين القرائن. ويمكن رصد هذه الظواهر في بقية الخطبة.

4) "إني والله يا أهل العراق،
و(..................) معدن الشقاق والنفاق
و(................ ...) (....) مساوئ الأخلاق"

فهناك مؤالفة في القوافي، ومخالفة في البناء النحوي للقرائن. ومع أداة النفي بعده، يغير مسارُ المعنى والتركيب الذي لم يُحتفظ منه إلا بالبناء للمجهول.

5) "ما يقعقعُ لي بالشنان، ولا يُغمز جانبي كتغماز التين". وقد قلل سِناذُ الردف هنا (شنان/ تين) من تماثل القافية وذلك تمهيدا للتخلص منها في الفقرة الموالية.

6) "ولقد فُررت عن ذكاء، وفُتشت عن تجربة".

7) ثم تلا ذلك "تمهيدٌ" طويلٌ مرسل، متحرر من جميع شروط الموازنة الصوتية.

"وإن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كنانته بين يديه ..". ثم جاءت الفقرات اللاحقة موزعة بين الازدواج والسجع والاسترسال، مما يسَّر تضمين الآية القرآنية: "فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة..". كما يسَّرَ حكاية ما أمره به أمير المؤمنين: "وإن أمير المؤمنين..".

8) ومن عناصر دعم الإيقاع في هذه الخطبة كون حوالي ثلثها من الرجز، والرجز قريب من السجع، أو هو سجع مُطرد الوزن.

9) كما لعب الجناس دورا في تناغم بعض الفواصل كتكرار صوت (ق) و (ش) في قوله:

" يا أهل العراق، ومعدن الشقاق، والنفاق، ومساوئ الأخلاق، ما يقعقع لي بالشنان".

10) ولعب جناس الاشتقاق دوراً مماثلا:

"ما يغمز جانبي كتغماز التين". "وسَنَنْتُم سُنن الغي" "لأعصبنكم عصبَ السلمة". "لأضربنكم ضربَ غرائب الإبل". "قالاً وقيلاً، وما تقول". "انج سعد فقد هلك سعيد".

إن الحجاج وأمثاله من بلغاء الخطباء الذين تفاعلت فيهم المقدرة البلاغية بمعاناة واقع صعب، ومستمع غير مُستمع، كانوا يلجؤون إلى الموازنة بين العناصر الدلالية والصوتية لا يدْعون جانباً يُلغي الآخَر أو يقلل من قيمته. ولذلك رأيناه من حين لآخر، يكبح جماحَ الموازنات ليفتح الطريق أمام المعاني والصور لتلعب دورها خصوصاً والخطبة مرصودة للإرهاب، لا للإطراب.

ج - خطب مرسلة (قليلة الصناعة)

وهي خطب قليلة العناية بالموازنات الصوتية - الإيقاعية، وخاصة الجناس الذي لا يكاد يظهر فيها إلا لماما. غير أن أصحاب هذه الخطب لم يهملوا الإيقاع إهمالا مطلقا بل حاولوا تحقيق شيء منه باعتماد الجُمل والفواصل القصيرة غالباً. وهذا طابع خطب الرسول والخلفاء ورجال الدولة في الصدر الأول. فنجد في خطب أبي بكر وعمر فواصل قصيرة متعادلة في الغالب غير ملتزمة للسجع أو الترصيع. وإن وقع فيها من حين لآخر. ويُمكن أن نعتبر خطبة حَجَّة الوداع نموذجا لهذا النمط من النثر، فإن بعض فقراتها تخلو من هموم الازدواج لسعيها الحثيث وراء المعنى المتجدد.

"أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحتقرون من أعمالكم. أيها الناس! إنما النَّسي زيادة في الكُفر يُضل به الذين كفروا يُحلونه عاماً ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرَّم الله. وإن الزمانَ قد استدارَ كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم، ثلاث متواليات وواحد فرد"[1].

وقد يسر استرسالُ العبارة استيعابَ آيات قرآنية مرسلةٍ دون أن يظهر تباين بينها وبين نص الخطبة.

---

[1] - جمهرة خطب العرب 1/ 156-157. وانظر خطبة لأبي بكر في الجمهرة 181/1 وفيها لحظات وغلبة استرسال.

على أن صدر الإسلام لم يخل من خطب تلتزم السجع وتلح على التوازن، كوصف الأسد لأبي زبيد الطائي. ووصف أبي بكر وعمر للسيدة عائشة، ونماذج أخرى من هذا القبيل تخرج عن التيار العام. وقد سبقت الإشارة إلى الشك فيها.

ويفصّل إحسان النص بين الخطب القصيرة التي تلقى بين يدي الخلفاء والولاة، وهي مسجوعة في الغالب، وبين الخطب الطويلة التي يقل فيها السجع ويعوضه التوازن، وأكثر ما يوجد منها في خطب علي بن أبي طالب. وهذه الخصوصية وغيرها من ألوان الصنعة البديعية التي لم تعرف إلا في العصر العباسي تشكك في طائفة من خطب الإمام علي[1]. وما قدمناهُ من حديث في (أ ـ ب) كفيل بدوره، بالتشكيك في هذا الحُكم الذي أصدَرَه إحسان النص في حق الخطب المصنوعة في صدر الإسلام، على أن تهمة الوضع راجحة بالنسبة للكثير مما نسب لعلي بن أبي طالبشعراً ونثراً.

أما ما ذهب إليه شوقي ضيف من إطلاق الحكم بتجنب الرسول والصحابة للسجع، فتصعب محاكمته إلى النصوص لافتراض تدخل الرواة والمؤلفين وتصرفهم فيها[2].

---

[1] ـ الخطابة العربية 44.

[2] ـ الفن ومذاهبه في النثر 58.

ملحق

- 1 -

خطبة الحجاج حين ولي العراق (1)

(سنة 75 هـ)

حدَّث عبد الملك بن عُمر الليثي قال:

بينما نحنُ في المسجد الجامع بالكوفة، وأهل الكوفة يومئذ ذَوُو حال حسنة، يخرج الرجلُ منهم في العشرة والعشرين من مواليه، إذ أتى آتٍ، فقال: هذا الحجاج قد قدِم أميرا على العراق، فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمّاً بِعمامةٍ قد غطى بها أكثرَ وجهه مُتقلداً سيفاً، متنكبا قوساً، يؤم المنبرَ، فقام الناسُ نحوَه حتى صعدَ المنبرَ، فمكثَ ساعةً لا يتكلمُ، فقال الناسُ بعضهم لبعض: قبّحَ اللهُ بني أمية، حيث تستعملُ مثل هذا على العراق، حتى قال عمير بن ضابئ البُرجمي: ألا أحْصِبه لكم؟ فقالوا: أمهلْ حتى ننظر، فلما رأى عيونَ الناس إليه، حسَرَ اللثام عن فيه، ونهض، فقال:

أنا ابنُ جلا وطلاعُ الثنايا　　　متى أضعُ العمامةَ تعرفوني

ثم قال: يا أهل الكُوفة، أما والله إني لأحْمِل الشرَّ بِحمله، وأحْذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى أبْصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولةً، ورؤوساً قد أيْنعت وحان قِطافها، وإني لصاحِبُها، وكأني أنظر إلى

الدماء بين العمائم واللحي تترقرق ثم قال:

هــذا أوانُ الشّــدّ فاشتــدّي زيَــمْ
قــد لفّهــا اللّيــلُ بسَــوّاق حُطَــمْ
ليــس براعــي إبــل ولا غنــمْ
ولا بجَــزار علــى ظهــر وَضَــمْ

ثم قال:

قــد لفّهــا الليــلُ بعَصلَبــيّ
أروعَ خَــرّاج مِــنَ الــدّويّ
مُهــاجر ليــسَ بــأعْرابيّ

ثم قال:

قـد شَـمّرَتْ عـن سـاقِها فشُـدُّوا
وجــدّتِ الحــربُ بكــم فجــدُّوا
والقــوسُ فيهــا وتــرٌ عُــرُدُّ
مثــل ذراع البَكْــر أو أشَــدّ
لابــدَّ ممّــا ليــسَ منــهُ بُــدّ

إنـي واللـه يا أهلَ العراق، ومعدن الشّـقاق والنفـاق، ومسـاوئ الأخلاق ما يُقعقع لي بالشّنان، ولا يُغمز جانبي كتَغماز التين، ولقد فُررتُ عن ذكاء، وفُتشتُ عن تجربة، وجريْتُ إلى الغاية القُصوى. وإن أمير المؤمنين - أطال اللهُ بقاءَه - نثر كِنانتَه، بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرّها عوداً، وأصبَها مكسراً فرماكم بي، لأنكم

طالما أوضعتُم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلالِ، وسَننتُم سُننَ الغي. أما والله لألحونّكم لحْوَ العصا، ولأقرعنكم قرعَ المروة، ولأعصبَنّكُم عصْب السّلمة، ولأضربنكم ضربَ غرائبِ الإبل، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مُطمئنة، يأتيها رزقُها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعُم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني والله لا أعِدُ إلا وفّيتُ، ولا أهم إلا أمضيتُ، ولا أخلق إلا فريْت، فإيّاي وهذه الشُفعاء، والزرافات والجماعات، وقالاً وقيلا، وما تقول، وفيم أنتم وذاك؟ أما والله لتستقيمُنّ على طريق الحق، أو لأدَعَنّ لكل رجُل منكم شُغلا في جسده. وإن أميرَ المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أُوَجِّهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صُفرة. وإني أقسمُ بالله لا أجدُ رجلاً تخلّف بعدَ أخذ عطائه بثلاثةِ أيام إلا سفكتُ دمه، وأنهَبْتُ مالَه، وهدمت منزله"[1].

شرح الغريب[2]:

["حذوتُ النعلَ والقذة بالقذة: قدَّرتُهما عليهما"

- قوله: "إني لأرى رؤوسا قد أينعت: يريد أدركت، يقال : أينعت الثمرة ، ايناعا وينَعاً" (الكامل 384/1).

زيـم: يعني فرساً أو ناقة (385/1).

- سواق حطم: الذي لا يُبقى من السير شيئا، ويوصف به من يأتي على الزاد، وكذا النار (نارٌ حُطمة).

- الوَضَم: كل ما قُطع عليه اللحم.

---

1 - الكامل للمبرد 380/1-382.

2 - الإحالة داخل المتن على الكامل للمبرد 381/1-386.

- خرّاج من الدّوِيّ: خرّاج من كل غماء شديدة، ويقال للصحراء دَوِّية التي لا تنقضي. والداوية: التي تسمع لها دويا. "ويقولُ الأعراب إن ذلك عزيف الجن" (386/1).

- وترٌ عُرُدّ : وترٌ شديد.

- وقوله: "إني والله .. ما يقعقع لي بالشنان"، واحدها "شن" وهو الجلد اليابسُ، فإذا قُعقع به نفرت الإبل منه فضربَ ذلك مثلا لنفسه، وقال النابغة الذبياني:

كأنك من جمال بني أُقَيْش يُقعقع بين رجليه بشَنّ (386/1)

- الذكاء: تمام السّن أو "حدة القلب" (1/ 386)، نهاية الشباب.

- عجم عيدانها : "مضغها لينظر أيها أصلب"، ومنه قول النابغة:

فَظَلَّ يَعجُمُ أعلَى الرَّوق مُنقبضاً
في حالكِ اللّون صدْقٍ غير ذي أوَدِ

- الإيضاعَ : ضربٌ من السيْر.

- العَصلّبي: الشديد الباقي على المشي.

- الأروع: الكريمُ أو الجميل الرائعُ.

- فرّ الدابة: كشف عن أسنانها ليعْرف عمرها.

- الغاية: قصبة تنصبُ في نهاية مَجال السباق.

- غرائب الإبل: الأجنبية عنها في المورد.

- خلق الأديم: قاسه لِمَا يريدُ من غرض قبل قطعه، والفَرْيُ: القطع)].

- 2 -

خطبة فرغانة

في تأبين الأحنف بن قيس

رُوِيَ أنَّ فرغانةَ بنْتَ أوسِ بنِ حَجَر التميميةَ وقفت على قبر الأحنف ابن قيس فقالت:

"إنّا لله وإنا إليه راجعون،

رحمك اللهُ أبا بَحْرٍ من مُجَن في جنن، ومُدرجٍ في كَفَن.

فَوَالَّذِي ابتَلانَا بفقدِكَ، وأبلَغَنا يومَ مَوْتك، لقد عِشْتَ حميدا، ومِتَّ فقيدا.

ولقد كنت عظيم الحِلْم، فاصل السِّلْم، رفيع العِماد، واري الزِّناد، منيعَ الحريم، سليم الأديم.

وإن كنتَ في المحافل لشريفا، وعلى الأراملِ لعَطُوفا، ومن الناس لقريبا، وفيهم لغريبا،

وإن كنت لمُسَوَّدًا، وإلى الخلفاء لمُوفَدًا، وإن كانوا لقولك لمستمعين، ولرأيك لمتبعين ثم انصرفت"[1].

---

[1] ـ البيان والتبيين 302/2. "أجَنّهُ في الجَنَن: أي وضعه في القبر" (حاشية البيان). وقد نظمنا فقرات النص فضائيا حسب قراءتنا.

- 3 -

وصف أبي بكر وعمر

من خطبة للسيدة عائشة يوم الجمل

في أهل البصرة

"...أبي ثاني اثنين الله ثالثُهما، وأولُ من سُمّي صِدّيقا، مضى رسولُ الله (ص) راضيا عنه. وطوقه أعباءَ الإمامة، ثم اضطربَ حبلُ الدين بعده، فمسك أبي بطرفيه ورتَق لكم فتق النفاقِ، وأغاض نبعَ الرِّدة، وأطفأ ما حشّ يهودُ، وأنتم يومئذ جُحظُ العيون، تنظرون الغَدْرة وتسمعون الصَّيْحة، فرأبَ الثأي، وأوَّد من الغِلْظَة، وانتاشَ من الهُوة، واجتحَى دفينَ الداءِ، حتى أعطنَ الواردَ، وأوردَ الصادرَ، وعلَّ الناهل، فقبضه الله إليه، واطئاً على هامات النفاق، مُذْكياً نار الحرب للمشركين، فانتظمت طاعتكم بحبله، فولّى أمركم رَجُلاً مُرْعِيا إذا رُكنَ إليه، بعيد ما بين اللابَتَين، عُرَكَةً لِلأذاةِ بجنبه، صَفُوحاً عن أذاة الجاهلين، يقظانُ الليل في نصرة الإسلام، فسلك مسلك السابقة، ففرّق شملَ الفتنة، وجمعَ أعضادَ ما جمع القرآن. وأنا نُصْبُ المَسألة عن مسيري هذا، لم ألتمسْ إثما، ولم أُونِسْ فِتنة أوطِئكموها..."[1].

---

[1] - جمهرة خطب العرب 1/ 306-307. حشّ النار: أوقدها. الثأي: الإفساد. أوّدَ: عطف. اجتحَى: استأصل. أعطنَ الإبلَ: حبسها عند الماء. علّ: شرب مرة ثانية. نهل: شرب مرة أولى. اللابة: الحرّة بالفتح، ولابَتا المدينة: حرّتان تكتنفانها.

- 4 -

خطبة الوداع

للرسول (ص)

"الحمدُ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونستغفرُه ونتوبُ إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفُسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهدِ اللهُ فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له. وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك لـه، وأشـهدُ أن محمداً عبدُه ورسوله. أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعدُ، أيها الناس اِسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا في مَوقفي هذا.

أيها الناس : إن دماءكم وأموالَكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقوا ربَّكُم، كحرمة يومكُم هذا، في شهركُم هذا، في بلدكم هذا.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدِّها إلى الذي إئتمنه عليها. وإن رِبَا الجاهلية موضوعٌ[1]، وإن أولَ رِباً أبدأ به ربَا عمي العباسِ بن عبد المطلب. وإن دماءَ الجاهلية موضوعة، وإن أولَ دمٍ نبدأ بـه دمُ عامرِ ابنِ ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غيرَ السِّدانَةِ والسِّقاية[2]. والعَمْد قَوَدٌ، وشِبهُ العَمد ما قُتِل بالعصا

[1] ـ وضعَ عن الدين: أسقطهُ.

[2] ـ السِّدانة: خدمة الكعبة. السقاية: ما تسقيه قريش الحجاجَ من زبيب منقوع في

والحجر، وفيه مائةُ بعير، فمن زادَ فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاعَ فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إنما النسيءُ[1] زيادة في الكفر يُضِل بـه الذين كفـروا؛ يُحلونه عاماً ويُحرِّمونه عاما، لِيواطئوا عدةَ ما حـرَّم اللـه، فيحلّـوا مـا حرم اللـه. وإن الزمـان قد استدارَ كهيئته يوم خلق اللـه السـماوات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشـر شـهراً فـي كتـاب اللـه يوم خلقَ السماواتِ والأرض. منها أربعـة حُـرم: ثلاثـةٌ متواليـاتٌ وواحدٌ فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمـادى وشعبان.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق. لكم عليهـن أن لا يوطئن فُرُشكم غيركم، ولا يُدخلن أحداً تكرَهُونه بيوتكم إلا بـإذنكم. ولا يأتين بفاحشةٍ مُبينة، فإنْ فعلنَ فإن الله قـد أذِنَ لكم أن تعضلوهُن وتهجروهن في المضاجعِ، وتضربوهن ضربا غير مُبرِّح، فإن انتهيْن وأطعنكم فعليكم رزقُهن وكِسوتُهنَّ بـالمعروف. وإنمـا النسـاءُ عندكم عوانٍ[2] لا يملكن لأنفسهن شيئا: أخذتموهن بأمانـة اللـه واستحللتم فُروجهن بكلمة الله. فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

الماء.

[1] ـ النسيء: تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر.

[2] ـ "العواني جمع عانية. وهي الأسيرة..." (حتشية البيان 32/2).

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مُسلمٍ مـالُ أخيـه إلا عن طيب نفس منه.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

فلا ترجعُن بعدي كُفاراً يضرب بعضُكم رقابَ بعض، فإني تركـت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس، إن ربَّكُم واحدٌ، وإن أبـاكم واحـد، كلكـم لآدم وآدم مـن تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليمٌ خبيرٌ. وليس لعربي علـى عجمي فَضلٌ إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

قالوا : نعم.

قال: فليبلغ الشاهدُ الغائب.

أيها الناس، إن الله قسم لكل وارث نصيبَه من الميراث، فلا تجـوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث. والولـد للفـراش، وللعاهر الحجر. من ادَّعى إلى غير أبيه، أو تولى غـيرَ مواليـه فعليـه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبـل منـه صـرف ولا عـدل[1]. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(2).

---

[1] ـ العدل: قتل الرجل بالرجل، والصَّرف: قَبولُ الدِّية.

[2] ـ البيان والتبيين 2/31-33. وجمهرة خطب العرب 1/155-158.

- 5 -

تهنئة وتعزية

خطبة عبد الله بن همام السلولي

لما توفي معاوية واستُخلف يزيد ابنه (سنة 60) اجتمع الناس على بابه، ولم يقدروا على الجمع بين تهنئة وتعزية، حتى أتى عبد الله بن همام السَّلولي فدخل عليه فقال:

"يا أميرَ المؤمنين، آجرك اللهُ في الرَّزية، وبارك لك في العَطية، وأعانك على الرعية، فلقد رُزئتَ عظيما، وأُعطيتَ جسيما، فاشكر اللهَ على ما أُعطيتَ، واصبرْ له على ما رُزيت، فقد فقدتَ خليفةَ الله، ومُنحت خلافة الله، ففارقت جليلاً، ووُهبت جزيلا، إذ قضَى معاويةُ نحبَه، فغفر الله ذنبه، ووُلِّيت الرياسة، فأُعطيت السياسة، فأوردك الله مواردَ السُّرورِ، ووفقك لصالحِ الأمورِ، وأنشد:

فاصبرْ يزيدُ فقد فارقتَ ذا ثقةٍ	واشكر حِباءَ الذي بالمُلك أصفاكَا
لا رُزْءَ أصبحَ في الأقوام نعلمُه	كما رُزئتَ، ولا عُقْبى كعُقباكَا
أصبحتَ واليَ أمرِ الناس كلِّهم،	فأنتَ ترعاهمُ واللهُ يَرعاكا
وفي مُعاويةَ الباقي لنا خلَفٌ	إذا نُعيتَ، ولا نَسْمَعْ بمَنْعاكا

" وعبد الله بن همام هو أول من فتحَ الباب في الجمع بين تهنئة وتعزية، فولَجه الناس، كما رُوِيَ من غير وجهٍ"[1].

---

[1] - جمهرة خطب العرب 262/2.

الفصل الخامس

ترتيب أجزاء القول

تمهيد نظري

يعتبر كواركس Corax أولَ من وضعَ الأجزاءَ الكبرى للخطاب[1]، وهي الأجزاء التي لم يُدخلْ عليها من جاء بعده تغييرا كبيراً.

ثم لاحظ أرسطو أن التقسيم التقليدي ليس مناسباً إلا في بعض أنواع الخطابة؛ فلا يوجد في نظره غير خطوتين ضروريتين: عَرْضُ القضية والبرهنةُ عليها.

وعموما فقد اهتمت البلاغة القديمة ومباحث الجدل في عصر النهضة بموضوع ترتيب المواد المعالجة والحجج المرصودة للاحتجاج والإقناع. ويرى بيرلمان أن الترتيب في قضايا البرهنة الشكلية غير ذي أهمية، وعكسُ ذلك حينما يكون الغرضُ الاحتجاجَ قصد مشاركة المستمعين فإن ترتيبَ عرض الحُجج يُكيفُ شروطَ القبول عند هؤلاء"[2]. وفي أيامنا كثيراً ما يقوم رئيسُ المجلس أو الندوة بتقديم الخطيب فيحقق بذلك بعض أغراض المُقدِّمة مثلاً.

والملاحظ أن الترتيب عند أرسطو وظيفي إذ يتعلق الأمر دائما بالغرض المستهدف والوسائل المرصودة له. ونورد هنا نصّاً طويلا

---

[1] - انظر مقال رولان بارث عن البلاغة التقليدية في مجلة Communication 16 p.218.

وانظر السّابقين الممهدين لخطابة أرسطو في كتاب Etude sur la rhétorique d'Aristote p.5. وما بعدها.

[2] - بيرلمان في Empire rhétorique. P. 163.

نسبيا من كتاب الخطابة يبين هذه الظاهرة كما يبين سبق أرسطو إلى كثير من الملاحظات الثمينة التي استثمرها البلاغيون بعده، ونص كلامه حسبَ ترجمة عبد الرحمن بدوي:

"الكلام يتضمن جزأين: إذ لابد من ذكر الموضوع الذي نبحث فيه، ثم بعد ذلك نقوم بالبرهنة. ولهذا فمن المستحيل بعد ذكر الموضوع أن نتجنب البرهنة، [أو أن][1] نقوم بالبرهنة قبل ذكر الموضوع أولا، ذلك أنه حين نبرهن إنما نبرهن على شيء، ولا نذكر الشيء إلا من أجل البرهنة عليه. وأولى هذه العمليات هي: العرض، والثانية الدليل، وهذا يفضي إلى وضع تفرقة بين المسألة وبين البرهان.

بيد أن خطباء هذه الأيام يضعون تقسيمات مضحكة: أوّلاً، لأن القَصّ يَظهر أنه خاص بالخطب القضائية... أما الاستهلال والمناقشة بالتساجل والتكرار بإيجاز لما قيل، فإنها لا توجد في خطب المحافل إلا إذا كان ثمة مناظرة. فكثيرا ما يقع في هذه الخطب اتهام ودفاع، لكن لا يمكن أن نسمي هذا بعد محفلا خطابياً. أما الخاتمة فلا تدخل في كل نوع من أنواع الخطب القضائية، فهي مثلا بغير فائدة إذا كان العرض قصيراً أو كانت تفاصيل القضية سهلة الحفظ، ففي هذه الحالة يحدث أن يحذفه المرء تجنبا للإطناب.

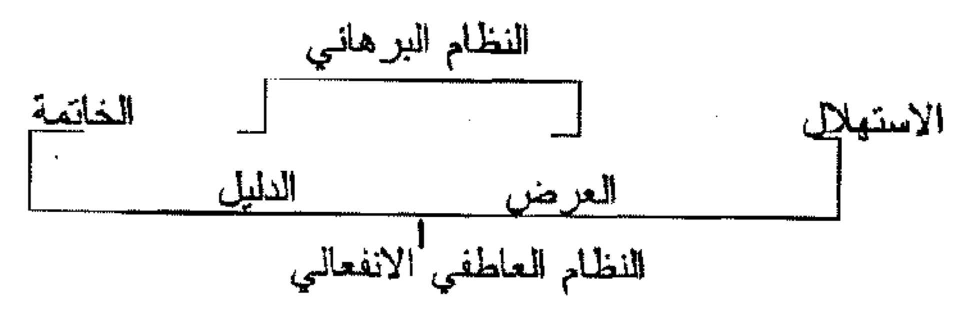
وهكذا ليس ثمة من ضرورة إلا للقضية والدليل. فهذا هو الملائم

---

[1] ـ في ترجمة بدوي "إذ إنا"، وصححناه اعتماداً على الترجمة القديمة بتحقيقه، لعله خطأ مطبعي.

حقا للكلام. وقصارانا السماح بـ: الاستهلال، والعرض والدليل والخاتمة، أما التفنيد فمن شأن الأدلة"[1].

وترتيبُ الأجزاء يسيرُ في ثنائية عُبِّرَ عنها في مجال البراهين بطريقة أخرى، وهي ثنائية الدعوة العاطفية في المقدمة والخاتمة، والدعوة إلى الواقع والعقل في العرض والدليل[2].



والمُتَّبَع أن يحتوي الاستهلالُ لحظتين: لحظةُ الاستهواء والاستمالة، وذلك حسب طبيعة القضية المطروحة، ولحظةُ الإعلان عن التقسيم المتبنى، والتخطيط المتبع. كما أن للخاتمة مستويين: مستوى الأشياء أي مستوى الإعادة والتلخيص، ومستوى العواطف وهذا المستوى الأخير أقل أهمية عند الإغريق منه عند الرومان[3].

أما العرض فينبغي أن يكون واضحاً ومُختصرا خاليا من الاستطراد والتشخيص، يكتفي بالإعداد لمرحلة البرهنة، فهو يضم ذكرَ الوقائع ووصفَها زمنيا ومكانيا كما يصف الذوات. وفي العصور الوسطى صار الحديثُ عن الترتيب الطبيعي للوقائع (كما وقعت)

---

[1] ـ الخطابة لأرسطو (ترجمة بدوي) 234.

[2] ـ استعيرت هذه الخطاطة من رولان بارث في مقالته في مجلة Communication 16 p. 215.

[3] ـ نفسه.

والترتيب الاصطناعي (مثل الفلاش باك)[1] رائجا.

وبعدَ العَرض يُشرعُ في البرهنة بتقديم بعض الأدلة القوية وتـأخير بعضها. وتُقدّمُ الحُجج تنازلاً (من الأقوى إلى الأضعف)، أو تصاعداً (عكس الأول)، أو توزعُ بين الأول والأخير. إن ذلك يتحدد، حسب رأي أرسطو، بالنظر إلى الظرف والمعطيات العامة التي يراعيها الخطيب، وإن كان أصحابُ الميول العلمية ميالين إلى البحث عن خطة ثابتة[2].

ولم أجد فيما اطلعت عليه من البلاغة العربية تَقنيناً للنظام الذي ينبغي للخطيب أن يتبعه في ترتيب أجزاء خطبته عدا الإلحاح على الاستهلال الديني: "فمن أوصاف الخطابة أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد... ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يُذكر الله، عز وجل، في أولها: البتراء"[3]. وقد أطال بعضُ الخطباء في مقدمات الحمد والشكر، وخاصة في الخطب الدينية، وفي مقدمات الرسائل على نحو ليس لنا أن نتحدث عنه هنا.

والجانب الثاني الذي أشار إليه البلاغيون والأدباء، وروعي في الكثير من الخطب، (وفي خطب الكتب ومقدماتها فيما بعد بشكل ملحوظ)، هو تضمين المقدمة ما يدل على الموضوع. فمما أسند إلى ابن المقفع:

---

[1] ـ نفسه.

[2] ـ انظر مبادئ البحث عند ديكارت، وتعليق بيرلمان عليها في كتابه Empire. p. 164.

[3] ـ البرهان 153. وانظر البيان 6/2.

"ولْيَكُنْ في صدر كلامكَ دليلٌ على حاجتك".

وعلق الراوي عليه بقوله:

"كأنه يقول: فرْقٌ بين خطبة العيد وخطبة الصلح، وخطبة التواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدرٌ يدل على عَجُزِه، فإنه لا خيرَ في كلام لا يدلُّ على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت.."[1].

في الخطابة العربية

ولا نجد فيما اطلعنا عليه من خطب القرن الأول حرصاً على توفُّر الخُطب على نظام مُعين تظهر فيه المقدمة والعرض والخاتمة. وهذا يبرر عدم اهتمام البلاغيين العرب بتنظير هذا الجانب، على أن ذلك لا ينفي اهتمامَ الخطباء بعرض القضايا مشفوعة بوسائل الإقناع والتأثير المتوفرة لديهم عرضا مناسبا يسمح بالوصول إلى الغرض.

يرى إحسان النص، مثلا، أن ترتيبَ المعاني، وتسلسلَ الأفكار، وارتباطَ بعضها ببعض، أمرٌ ملحوظٌ في خطبة زياد "البتراء"، ثم يعقب على ذلك بقوله:

"على أننا لا ينبغي أن نُسرفَ في تقدير عناية الخُطباء الأمويين بالتقسيم والترتيب، فهم لم يبلغوا من ذلك مبلغَ خطباء اليونان القدامى مثلا. والسبب الأول لذلك، فيما يبدو لنا، هو أن التفكير المنطقي بمفهومه الدقيق كان مُتأخرًا في وجوده على العصر الأموي وهو

---

[1] ـ البيان 116/1 (هرون)

العصر الذهبي للخطابة العربية، لأن العرب لم يُتحْ لهم الوقوفُ على التراث الفلسفي اليوناني إلا في العصر العباسي، وهو العصر الذهبي لازدهار الحياة الفكرية، والثقافية والفلسفية عند العرب"[1].

والواقعُ أن أرسطو نفسَه لم يُلزِم الخطابةَ الاحتفالية ـ كما سبق من كلامه ـ بكثير من التقنيات المنظمة التي عرفت في الخطابة القضائية والاستشارية. وأغلب الخطابة الأموية احتفاليةٌ، كما أن أكثر الخطب العربية قائمة على الإيجاز والشاعرية، فلا يرجعُ السبب إذن إلى مجرد الاطلاع أو عدم الاطلاع على التراث الفلسفي اليوناني في العصر الأموي الذي يمكن أن يكون هو الآخر موضعَ نقاش خصوصاً إذا تعلق الأمر بعدد من الخطباء غير العرب، إذ ليس هناك من ضرورة للربط بين الاطلاع وحركة الترجمة، ما دام الاطلاع المباشر مُمكناً لاولئك الذين شاركوا في الحياة العربية الدينية والاجتماعية وعُرِفوا بالخطابة.

[1] ـ الخطابة العربية 250-251.

نموذج عام للتحليل:

خطبةٌ للحجاج

في أهل الكوفة وأهل الشام

"يا أهلَ الكوفة، إن الفتنة تُلْقَحُ بالنجوى، وتُنتج بالشكوى، وتُحصد بالسيف، أما واللهِ إن أبْغضتُموني لا تضرُّوني، وإن أحببتُموني لا تنفعوني، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مَودتكم، زعمتم أني ساحر، وقد قال اللهُ تعالى: "ولا يُفلح الساحر"، وقد أفلحتُ،. وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر، فَلِمَ تُقاتلون مَنْ يعلم ما لا تعلمون؟

ثم التفتَ إلى أهلِ الشام: "لأزْواجُكم أطْيبُ من المِسك، ولأبناؤكم آنسُ بالقلبِ من الولَد، وما أنتم إلا كما قال أخو بني ذُبيان:

إذا حاولتَ في أسدٍ فُجوراً ... فإني لستُ منك ولستَ مني

هُمُ دِرعي التي استلأمتُ فيها ... إلى يوم النِّسار، وهم مِجَني

ثم قال: بل أنتم، يا أهلَ الشام، كما قال الله سبحانه: "ولقدْ سَبَقَتْ كلمتُنا لعبادنا المُرسلين، إنَّهُمْ لهُمُ المنصورون، وإن جُنْدَنا لهم الغالبون"، ثم نزل"[1].

1- شرح ابن أبي الحديد 295/1.

خطة للتحليل

تحتوي هذه الخُطبة، برغم قِصَرِها، على جميع مقومات الخطاب الإقناعي، كلٌّ بمقدارٍ.

1 ـ حجج الخطابية:

أ ـ حجج جاهزة:

الاستشهاد بآيتين من القرآن وبِبَيْتين من الشعر. ما يُكوّن حوالي ثلث الخطبة.

ب ـ حجج غير جاهزة

1) التقسيم والمقابلة بين المعاني لادعاء الاستقصاء والإحاطة. (تلقح، تنتج، تُحصد). (البغض، المحبة)، (العداوة. البغضاء).

2) **القياس المضمر:** "زعمتُم أني ساحر..." زعمتم أني أعلم الاسم الأكبر.."، وقد سبق تحليل هذين القياسين. في الحديث عن القياس الخطابي.

2 ـ الأسلوب يقوم على :

ا ـ غلبة الموازنات الصوتية ـ الإيقاعية: فِقَرٌ **متناظرة التركيب**، ومتجانسة القافية خاصة في الجزء الأول من الخطبة، يدعم ذلك بيتان من الشعر. ثم يميل إلى الاسترسال مع الآية القرآنية في نهاية الخطبة، ليجنب الخطبة التكلف الذي يُسيء إلى الوظيفة الإبلاغية.

ظهور التكلف).

ب ـ المقابلة بين المعاني والحالات: معاني الحب والكراهية، حالة أهل الكوفة وأهل الشام.

ج ـ الميل إلى التصوير في بداية الخطبة: تشبيه الفتنة بما يُلقَح يُنتج ويُحصد.

3 ـ تنظيم أجزاء القول:

ـ بدأ بقضية عامة: بداية الفتنة (أية فتنة) ونهايتها.

ـ ثم تحدث عن رأي أهل الكوفة فيه وقلة اكتراثه بهم، وفضل عليهم أهلَ العراق نِكايةً بهم.

ـ ختم بآية قرآنية (تهديد وتيئيس لهم).

وهو في ذلك كله يراعي المقام والذوق العربي الميال إلى الإيجاز في مثل تلك المواقف.

خاتمة:

من الخطابة

إلى الكتابة الفنية:

البدايات الأولى

إن البحث في مسألة وجود نثر مكتوب في الجاهلية يطرح عدة أسئلة منها:

هل كانت الكتابة رائجة مستعملة في الجاهلية؟

وإذا كان الجواب بالإيجاب، فهل تعدت تحرير الوثائق التجارية والسياسية إلى تدبيج نصوص ذات بناء أدبي شعرري أو حجاجي؟

"لقد أكد البعض (حسب عبارة هملتون جيب) أنه كانت توجد للعرب بالفعل آداب نثرية في العصر الجاهلي.. إنني أعتقد أنه لم يقم برهان حتى الآن على وجود أي آداب نثرية مدونة بين العرب الذين سكنوا جزيرة العرب، ويزعم من ناحية أنه ربما وجدت كتب مدونة في الحيرة، وأنه وجدت بالفعل بعض المقيدات التاريخية، هناك فهذا لا مراء فيه، ولكن ما بعد ذلك لا يعدُو أن يكون مجردَ افتراض.. ومع كل فلو أنه وجدت كتب مدونة من الأدب المنثور في جزيرة العرب في العصر الجاهلي لعُد عجيبا اختفاء آثارها هذا الاختفاء الكلي حتى من أحاديث العرب المنقولة"[1].

ولم تحفظ ذاكرة العرب عن زمن الجاهلية - عدا الشعر - بغير بعض الخطب والأمثال والحكم والأسجاع وبعض القصص، مما تناقلته الألسن شفويا.

---

[1] - هـ . جيب. دراسات 281.

وينظر بهذا الصدد رأي من يؤكدون وجودَ كتابةٍ وإن لأغراض غير أدبية تجارية وسياسية: أنيس المقدسي في تطور الأساليب النثرية، والحوفي في أدب السياسة، ومحمد كرد علي في أمراء البيان. وينظر لوجه آخر طه حسين في الأدب الجاهلي والبهبيتي تاريخ الشعر السياسي. الباب الثاني من الكتاب الثالث.

ولم يشر القدماء إلى وجود نثر فني مكتوب، والجاحظ الذي عني بالنثر عناية فائقة، ولم يساوره شك، ولا أبدى ترددا، وهو يتحدث عن الخطابة لم يذكر الأدب ضمن مجالات استعمال الكتابة حين تحدث عن فضلها في مجالات مختلفة: "ولولا الخطوط لبطلت العقود والشروط والسِّجلات والصِّكاك، وكل إقطاع وكل إنفاق وكل أمان وكل عهد وعقد، وكل جِوار وحِلف، ولتعظيم ذلك والثقة به والاستناد إليه كانوا يَدْعُون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيما للأمر وتبعيدا من النسيان"[1].

ولم يورد القلقشندي شيئا مما كتبه الجاهليون بل اكتفى بالإشارة إلى ضياعه.

أما إذا رجعنا إلى ما وصلنا من رسائل صدر الإسلام واعتبرناها امتداداً لما يحتمل وجوده من مكاتبات في الجاهلية، فإننا نحكم مباشرة بأنها كانت بسيطة لا تخرج عن المجالات التي حدَّدها الجاحظ. تؤدي وظيفتها في عبارة مباشرة دون اهتمام بالجانب الفني. وهذا شأن مكاتبات الرسول والخلفاء والقادة والولاة في الصدر الأول. بل يعتقد طه حسين، ولديه ما يبرر اعتقاده، أن النثر الفني وهو الذي فيه شيء من الفن، وفيه ميل إلى إحداث اللذة عند القارئ فوق العناية بتأدية الفكرة[2]، إنما ظهر في أول القرن الثاني: "فأول القرن الثاني هو

---

[1] - الحيوان 69/1.
[2] - من حديث الشعر والنثر 40.

الذي شهد ظهور الحياة العقلية، وهو الذي شهد مظهر هذه الحياة العقلية، وهو نشأة النثر الفني"[1].

وهو لا يذهب إلى ما ذهب إليه بعض العرب والمستشرقين من اعتبار عبد الحميد وابن المقفع مؤسسين للنثر الفني عند العرب، "فلم يؤسس النثر العربي كاتب بعينه، وإنما نشأ نشأة طبيعية ملائمة للشعب العربي الإسلامي"[2].

ورأيه في نشأة الرسائل لا يخرج عن رأيه في نشأة النثر عامة: "أما الرسائل التي كانت تصدر عن الخلفاء والأمراء فقد كانت في أول أمرها يسيرة سهلة لا تكلف فيها، وإنما كانت ممثلة للطبيعة البدوية العادية، ولم تظهر الرسائل الفنية التي تأنق أهلها فيها، واتخذوها موضوعا للعناية الفنية في هذا العصر إلا في آخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني"[3].

والذين يؤخرون ظهور النثر الفني إلى القرن الثاني ومنهم بلاشير (379/3) يربطونه بالظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية المطبوعة بالمثاقفة وتبادل التأثير، أو يتشددون في تحديد "الأدبية" فيشترطون عدم المباشرة في الأداء، فهملتون جيب مثلا يرى "من الحق أن نسلم.. أن ابن المقفع كان أول مؤلف للإنشاء الأدبي في اللغة

---

[1] ـ نفسه 35.
[2] ـ نفسه 40.
[3] ـ نفسه 37 وقد لخص صاحب (الظاهرة الأدبية في العصر الأموي) وجهة نظر طه حسين واقتطع بعض عباراته دون أية إشارة مرجعية.

العربية"[1]، إذ أعرب في مترجماته عن مواعظ ووصايا (بطريقة غير مباشرة في صورة تاريخ أو خرافة على ألسنة الحيوانات"[2]، وكان عنصر الوعظ في كليلة ودمنة "معسولَ اللفظ بما صيغ فيه مستوراً على ألسنة الحيوانات، بحيث يسوغ لنا أن نعتبره أول خطوة في سبيل نقل الأدب من الرسائل الوعظية أو التدريبات اللغوية إلى الأدب الجميل أو الكتابة الرفيعة ذات التسلية السامية"[3].

ولاشك أن استعمال كلمة "أول" في هذا المجال ليس دقيقا. صحيح أن ابن المقفع دفع بالأدبية نحو الكمال، وهو يرضي مفهوم الأدب عند المحدثين، ولكن الخطوات التي سبقته كانت مساهمة لا تنكر في مسلسل يصعب فيه إسناد الفضل والسبق لواحد دون غيره. ولدعاة النشأة العربية للنثر الكتابي الفني ــ هم الآخرون ــ ما يحتجون به، خاصة وهم يرفضون الطفرة ويتمسكون ببساطة المولد، والتدرج في التطور إذ يمكن الحصول على مجموعة من الرسائل التي لم يهدف أصحابها إلى تبليغ فكرة مجردة، بل اعتمدوا على وسائل بلاغية كثيفة لنقل هذه التجربة قصد التأثير في المتلقي وإثارته.

ومن النماذج المبكرة ـ فيما صحت نسبته ـ إلى العصر الإسلامي الأول. رسالة عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب (يوم الدار).

"أما بعد، فقد بلغَ السيل الزُّبَى، وجاوزَ الحزام الطُّبْيَيْن، وارتفع

---

1 ـ جبيب دراسات في الحضارة العربية 312.

2 ـ نفس المرجع السابق.

3 ـ نفس المرجع السابق.

أمر الناس في شأني فوقَ قدره، وزعموا أنهم لا يرضون دون دمي، وطمع في من لا يدفع عن نفسه:

وإنكَ لم يفخَرْ عليك كفاخر ضعيفٍ، ولم يغلبْك مثلُ مُغلّبِ

وقد كان يقال: أكل السَّبع خيرٌ من افتراس الثعلب، فأقبل علَيَ أوْ لِي:

فإن كنتُ مأكولاً فكُن خيرَ آكلٍ وإلاَّ فَأدرِكني ولمّا أُمَزّق[1]

وقد لجأ فيها إلى التصوير والتمثيل: فشبه الثورة وتعقُّد الأمر بالفيضان والغرق: "بلغ السيل الزبى.. ارتفع أمر الناس.." ..

وفي تفضيل تسليم الأمر لعلي واحتقار أمر الثوار الذين ليسوا أنداداً لـه حَضَرَتْه صورةُ "أكل السبع" و "وافتراس الثعلب"، فعَلِي سَبُعٌ، ومحاصرُو الدارِ ثعالبُ لا أقل ولا أكثر.

وفي اللسان (زبي): "الزبية: الرابية التي لا يعلوها الماء وفي المثل: قد بلغ السيل الزبى.. يضرب مثلاً للأمر يتفاقم أو يتجاوز الحد"

والطُّبْي: حلماتُ الضَّرع، "وفي المثل جاوز الحزام الطُّبيين.. كنايةٌ عن المبالغة في تجاوز حد الشر.. لأن الحزام إذا انتهى إلى الطبيين فقد انتهى إلى أبعد غاياته فكيف إذا تجاوزه"[2]. وقد دعمت هذه الصور بمقابلات معنوية:

---

[1] ـ الإمامة والسياسة 37/1.

[2] ـ لسان العرب: طبي.

+	–
طمع	من لا يدفع عن نفسه = عاجز
يخر	فاخرٍ+ ضعيف
يغلب	مُغلّب
السبع	الثعلب
لـي	علـي
مَدرك	مأكول

كما دعمت بالموازنات الصوتية التركيبية والتجنيسية:

بلَـغ	السيلُ	الـزُبَـى	أكـلُ	السّبـع
جاوز	الحزام	الطبيين	افتراسُ	الثعلب

يفخر عليكَ كفاخر.
يغلبك مثلُ مُغلَّب.. الخ.

وهذا طابع بعض الرسائل المتبادلة بين أطراف الصراع في صدر الدولة الأموية؛ من ذلك رسالة يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة:

"إني واللـهِ قد لبستُكم فـأخلَقتكم، ورفعتُكم علـى رأسـي، ثـم علـى عيني، ثم على فَمـي، ثـم علـى بَطنـي. وأيْمَ اللـهِ لإنْ وضعتُكم تحـتَ قدمـي لأطـأنّكم وطـأةً أقِل بهـا عددكم، وأتركُكم بهـا أحـاديثَ تُنسـخُ أخبارُكم مع عادٍ وثمودَ"[1].

وقد استفادت الكتابة الفنية من الشعر واستعملت أدواته في مجالات كـانت للشـعر فيهـا الأسبقية، مثـل وصـف البـلاد والنـاس فاكتسـبت

[1] ـ جمهرة خطب العرب 94/2.

النصوص النثرية بذلك شاعرية كما نجد في رسالة الحجاج إلى عبد الملك.

"أما بعد، فإنا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصبْ أرضَنا وابلٌ منذ كتبتُ أُخبِرُه عن سقيا الله إيانا، إلا ما بلّ وَجهَ الأرض من الطَّشِّ والرَّشِّ والرَّذاذِ، حتى دَقِعتِ الأرضُ واقشعرَّت واغبرَّت، وثارتْ في نواحيها أعاصيرُ تَذْرُو دقاقَ الأرض من ترابها، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدةِ الأرضِ واعتزازها وامتناعها.

وأرضُنا أرضٌ سريع تغيُّرها، وشيكٌ تنكُّرها، سَيءٌ ظن أهلها عند قُحوطِ المطر، حتى أرسل الله بالقَبول يومَ الجمعة، فأثارت زِبْرجا مُنقطعا متمصِّسرا، ثم أعقبته الشَّمال يومَ السبت فطَحْطَحَت عنه جَهَامَه، وألَّفتْ متقطعة، وجمعت متمصرِّة، حتى انتضَد فاستوى، وطَما وطَحا، وكان جونا مُرْثَعِنّاً قريباً رواعدُه، ثم عادت عوائدُه بوابل منهمل، مُنسجِل يُردف بعضُه بعضاً، كلما أردفَ شُؤبوبا، أردفته شآبيبُ، لشدة وقعه في العِراض.

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وهي ترمي بمثل قِطع القُطن، قد ملأ اليبابَ، وسدَّ الشِّعابَ، وسقى منها كل ساقٍ. فالحمد لله الذي أنزل غيثَه، ونشر رحمتَه، من بعدما قَنطوا، وهو الوليُّ الحميد. والسلام"[1].

---

[1] ـ البيان والتبيين 4/99-100 (هرون). "دقعت: صارت لا بنات بها. اقشعرت الأرض من المَحْل: تقبضت وتجمعت. اعتزاز الأرض: [تصلبها] القبول: ريح الصبا، وهي الريح الشرقية، ويقابلها الدبور. الزبرج: السحاب الرقيق الخفيف. المتمصر: المتفرق المتقطع. طحطحته: فرقته وبددته. والجهام : السحاب الذي لا ماء فيه. والذي قد هراق ماءه. المرثعن: بمعنى المسترسل السائل. المنسجل:

ومهما يكن من اقتراب هذه الرسائل من الخطابة فالثابت أن الكتابة الفنية بدأت تشق طريقها منذ نهاية صدر الإسلام، ساهمت ظروف مختلفة في نشأتها وتطورها حتى بلغت مرحلة نضجها، نجملها فيما يلي:

1 ـ كتابة النص النثري وتدوينه، ولاشك أن أول نص نثري مطول تناولته الأيدي بالنسخ، وتناهضت الهمم لتدوينه وإشاعة نسخه في الأمصار هو القرآن الكريم[1]. كما اهتم الناس في الصدر الأول بالكتابة لتنظيم شؤون الدولة والحياة الاجتماعية. وقد حث القرآن نفسه على ذلك: "يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه". ومن أوائل ما كُتب في هذا العصر معاهدة تنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار واليهود، ومعاهدة الحديبية. ثم استُعمِلت الكتابةُ في التعليم الديني[2] .

2 ـ ازدهار فن نثريٍّ آخر وهو الخطابةُ، واقتحام مجالات الحياة العامة والخاصة، ودخولها في المناظرات الفكرية والسياسية، وتناولها الموضوعات الشعرية. ويرى شوقي ضيف أن أول سببين اثنين في ازدهار الرسائل يكمن في كون كثير ممن كانوا يكتبونها في الذروة من الفصاحة مثل زياد والحجاج وقطري والمختار الثقفي[3].

المنصب. العراص: جمع عرصة.. العراض: الناحية". (من حاشية البيان والتبيين، مع تصرف قليل جدا).

1 ـ انظر جيب. دراسات.

2 ـ نفسه.

3 ـ الفن ومذاهبه في النثر 102-103.

3 ـ هيكلة الدولة الإسلامية واستعمال الكتابة في الشؤون الإدارية (وستكون موضوع حديث خاص، بعده) مع ما صاحب ذلك من تنظيم الدواوين والبريد[1].

4 ـ تطور الحياة العقلية ونشأة العلوم. ويربط طه حسين بين نشأة علم التاريخ والفلسفة ونشأة النثر الفني[2].

5 ـ يرى بلاشير أن المثاقفة من العناصر الأساسية في نشأة النثر وتطوره، إذ كان كثير من الكتاب المشهورين مثل سالم وعبد الحميد وابن المقفع يعرفون الفارسية أو اليونانية (سالم)، كما كانت السريانية معروفة، بل كانت هذه اللغات هي اللغات الأصلية للكتاب فوجدوا فيها مادة وافرة، في شؤون الحكم وتنظيم المجتمع والآداب العامة، فاجتهدوا في تطوير النثر العربي ليستوعب تلك المعارف التي تحتاج إلى الدقة وحسن الأداء[3].

6 ـ التطور الحضاري ونشوء مراكز ثقافية، مع تكون طبقة اجتماعية مستقرة لها القدرة والوقت للكتابة[4]. برغم قلة وسائل الكتابة في هذا العصر، هذه الوسائل التي ستلعب دوراً مهما في انتشار الكتابة منذ منتصف القرن الثاني الهجري. ويقوي هذه العوامل ويزيد في فاعليتها ـ فيما يرى جيب ـ اعتزاز العرب بلغتهم العربية

---

[1] ـ انظر حسين نصار. نشأة الكتابة الفنية.

[2] ـ انظر من حديث الشعر والنثر.

[3] ـ ح. سركيس الظاهرة الأدبية. هـ. جيب. دراسات.

[4] ـ جيب. دراسات 298-299.

اعتزازاً جعلهم يتمسكون بها، ولا يحيدون عنها إلى غيرها.

"وينبغي أن نعترف (مع شوقي ضيف) أن المكاتبات في صدر الإسلام لم تحفظ في سجلات خاصة، وكان ذلك سببا في أن تناولها من غير مؤرخ وأديب بالتبديل والتحسين، ومن ثم كان الكتاب الواحد يروي روايات مختلفة باختلاف الكتب التي ترويه، وحسب ذوق الراوي وقدرته البيانية"[1]. نقول هذا ليحتاط عند الاستشهاد بالنصوص المفردة أو الشاذة، وينظر إلى التيارات المتسلسلة التي يفسّر بعضها بعضا.

الدواوين وتطور النثر المكتوب

بدأت الدواوين تتكون منذ عهد عمر بن الخطاب، يتولى الكتابة فيها كتاب من الموالي، إذ لم تكن كلها عربية، يقول الجهشياري: "لم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم، وهذا الذي كان عمر قد رسمه، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية. وكان بالشام مثل ذلك، أحدهما بالرومية والآخر بالعربية"[2].

ولاشك في أن هذه الدواوين ـ التي ستعرّب في عهد عبد الملك وابنه هشام ـ بعيدة عن هموم الكتابة الفنية. فهي أرقام وإحصاءات ولوائح.. وإن كان أثر هذا التعريب في دفع الموالي إلى تعلم العربية وتجويدها عاملاً مهما في تطور الكتابة.

---

[1] ـ الفن ومذاهبه 99.

[2] ـ الوزراء والكتاب 38، ونشأة الكتابة الفنية لحسين نصار.

ولم يرد ذكر لديوان الرسائل عند الجهشياري إلا في عهد عبد الملك بن مروان: "وكان يكتب لعبد الملك على ديوان الرسائل أبو الزعيزعة مولاه"[1]، وإن كانت الكتبة على الرسائل من غير ذكر للديوان سابقة لهذا العصر، فقد وصف الجهشياري عبيد الله بن أوس أنه "كان يكتب لمعاوية على الرسائل"[2]، وقال عن زياد بن أبيه: "ويكتب له على الرسائل عبد الله ابن أبي بكرة وجبير بن حية"[3].

ويذهب القلقشندي في صبح الأعشى إلى نقيض ذلك في قوله: "اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام، وذلك أن النبي (ص) كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه.. وهذه المكتوبات كلها مُتعلِّقها ديوانُ الإنشاء بخلاف ديوان الجيش فإن أول من وضعه ورتبه عمر بن الخطاب في خلافته"[4]. ولاشك في أن القلقشندي نظر إلى وجود مجموعة من الكَتَبَةِ حول الرسول يدونون الوحي ويكتبون ما يمليه عليهم من رسائل وعهود، فاعتبر ذلك مظهرا للديوان يؤدي وظيفته.

غير أن الذي يهمنا التأريخُ له ورصدُ أثره، هو وجود جهاز مستقل فيه كتاب محترفون يعتنون بتجويد كتاباتهم. ولاشك أن هذا إنما عُرف في العصر الأموي على نطاق واسع فلم يقتصر على الخلفاء بل اتخذ الولاة لأنفسهم دواوين وكتاباً خاصين. وبدأت الكتابة

[1] - نفسه 35.
[2] - نفسه 25-26.
[3] - نفسه 25-26.
[4] - صبح الأعشى 91/1 - نقله نصر في نشأة الكتابة الفنية 47.

تتحول من الإملاء إلى الإنشاء. وكان الحجاج يراقب كتاب ديوانه وربما عزل من لا يتقن صنعته[1] منهم. ويذكر أن عبد الرحمن بن الأشعث قال لابن القِرِّية: "إني أريد أن أكتبَ إلى الحجاج كتابا أُعرِّفه فيه سوء فِعاله، وأبصره قبح سريرته"[2].

إلى غير ذلك من الإشارات التي يمكن تتبعها في كتب الأدب والتي تدل على أن الكتابة عدت مرحلة العفوية والارتجال إلى التنقيح والتجويد المقصودين. وصارت في الحين نفسه عمل طائفة خاصة متفرعة. وحينئذ بدأ ضمير الغيبة يحل محل ضمير المتكلم، خاصة في رسائل هشام بن عبد الملك، فقد كتب سليمان بن هشام إلى أبيه يشكو ضعف بغلته فجاء في رد هشام: "قد فهم أمير المؤمنين كتابك". وكتب بعض عُمال هشام: "إني بعثت إلى الأمير سلة دراقن.." فكان الجواب "قد وصل إلى أمير المؤمنين الدّراقن.."[3].

ومع ذلك فقد استمر بعض الأبْنِياء من الأمراء والقواد يحررون رسائلهم بأقلامهم، ومنهم الحجاج.

وكان أوائل كتاب الرسائل عرباً مثل عبد الله بن أوس، وعبد الله بن أبي بَكْرَةَ ويحيى بن يعمر وقبيصة بن ذئيب وروح بن زنباع[4] "ويدل ذلك على أن ديوان الرسائل عربي النشأة وليس بالفارسي ولا اليوناني، كما يذهب إلى ذلك بعض الدارسين، وهذا أمر طبيعي في

---

1 - الوزراء والكتاب 62.
2 - جمهرة رسائل العرب 2/ 368-369.
3 - جمهرة رسائل العرب 2/ 368-369.
4 - الوزراء والكتاب 24- 16- 41- 34- 35. وانظر حسين نصار.

الرسائل العربية التي يطلب فيها الخلفاء الفصاحة والإجادة اللتين لم تتوفرا للأعاجم في ذلك الوقت، ولكننا لا نلبث أن نرى الأعاجم ينافسون العرب في هذا الميدان وربما كانت منافستهم فيه أسرع منها في جميع الميادين الأخرى"[1].

ولاشك أن لولوج ديوان الرسائل مقاييس واعتبارات لا تعود إلى القبلية أو الجنس أو الأسبقية في الإسلام فتلك أوراق يراهن عليها العرب، ولكنها تعود إلى تجويد الكتابة وإتقان قواعدها، مع ما تحتاج إليه من ثقافة واسعة في شؤون الإدارة، وتسيير أجهزة الدولة. وهي المزايا التي وجدت في عبد الحميد وابن المقفع وغيرهما من الموالي الذين كتبوا الرسائل التوجيهية في الإدارة والسياسية، وقننوا حرفة الكتابة وأخلاقها مستفيدين من ثقافتهم الأصلية ومعرفتهم بنظام الحكم عند الفرس خاصة.

وهكذا يُمكن القول بأن الكتابة الفنية بدأت مع الرسائل، ثم خطت أهم خطواتها مع الكتابة الديوانية، ومع وجود الكاتب المثقف المتخصص.

---

1 ـ ح. نصار نشأة الكتابة 68.

المصادر والمراجع

1. الأساس ـ أساس البلاغة. محمود الزمخشري. دار صادر. 1979.
2. الأغاني. أبو الفرج الإصفهاني. تحقيق لجنة من الأدباء. دار الثقافة. بيروت 1981.
3. أمثال العرب. المفضل محمد الضبي. تحقيق إحسان عباس. دار الرائد العربي. بيروت 1981.
4. الإمامة والسياسة. ابن قتيبة. تحقيق طه الزيني. بيروت 1967.
5. البلاغة العربية أصولها وامتداداته. محمد العمري. طبع إفريقيا الشرق. الدار البيضاء بيروت. 1999.
6. البيان والتبينن. الجاحظ. ت عبد السلام هرون.
7. البيان والتبيين. الجاحظ. بتحقيق السندوبي. دار الفكر بيروت.
8. البرهان. الزركشي. ت محمد أبو الفضل. عيسى الحلبي. القاهرة 1957.
9. البرهان في وجوه البيان. إسحق بن إبراهيم ابن وهب. ت حنفي محمد شرف. مطبعة الرسالة 1969.
10. البلاغة والأسلوبية. هنريش بليت. ترجمة محمد العمري.ط1. دراسات سال.1989. والطبعة الثانية. إفريقيا الشرق. بيروت البيضاء 1999.
11. تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك. محمد بن جرير الطبري.

تحقيق أبي الفضل. دار المعارف 1979.
12. تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي. أنيس المقدسي. دار العلم للملايين بيروت1968.
13. تلخيص الخطابة. ابن رشد. ت عبد الرحمن بدوي. دار القلم بيروت.
14. الجدل في القرآن. محمد التومي. الشركة التونسية، تونس 1980.
15. جرجياس. أفلاطون. نقله إلى العربية أديب نصر تحت عنوان (الخطيب). دار صادر.
16. جمهرة خطب العرب. أحمد زكي صفوت. المكتبة العلمية بيروت
17. جمهرة رسائل العرب. أحمد زكي صفوت. البابي. مصر 1971.
18. الحياة العلمية في الشام. خليل الزرو. دار الآفاق الجديدة. بيروت 1971.
19. الحيوان. الجاحظ. ت عبد السلام هرون. مكتبة البابي الحلبي.
20. الخطابة. أرسطو الترجمة العربية القديمة. ت بدوي. دار القلم بيروت 1979.
21. الخطابة العربية في عصرها الذهبي. إحسان النص. دار المعارف مصر 1969.
22. دراسات في حضارة الإسلام. هاملتون جيب. ترجمة إحسان عباس، محمد نجم، ومحمود درايد. دار العلم للملايين 1964.

23. شرح الفوائد الغياثية. الملا عصام الدين. دار الطباعة العامرة 1321هـ.
24. شرح المعلقات السبع. الحسن بن أحمد الزوزني. دار الفكر.
25. شعر دعبل بن علي الخزاعي. صنعة عبد الكريم الأشتر. ط2. دمشق 1983.
26. الصناعتين = كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. أبو هلال العسكري. محمد قميحة. دار الكتب العلمية 1981.
27. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. وزارة الثقافة والإرشاد.
28. الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والعصر الأموي. إحسان سركيس. دار الطليعة، بيروت.
29. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. الحسن بن رشيق. دار الجيل بيروت 1972.
30. فصل المقال. ابن رشد. دار الشروق.
31. الفن ومذاهبه في النثر العربي. شوقي ضيف. دار المعارف. مصر.
32. القاموس المحيط. محمد بن يعقوب الفيروزبادي. دار الفكر بيروت.
33. القرآن الكريم.
34. الكامل في اللغة والأدب. أبو العباس محمد المبرد. ت أبو الفضل والسيد شحاتة. دار نهضة مصر.
35. لسان العرب. جمال الدين ابن منظور. دار صادر.
36. مجمع الأمثال. الميداني. مصر 1310.
37. من حديث الشعر والنثر: طه حسين. دار المعارف. مصر.

38. النقد الأدبي. و. ومزات، ك. بروكس. ترجمة حسام الخطيب ومحيي الدين صبحي. دمشق 1973.
39. النقد الأدبي الحديث. محمد غنيمي هلال. دار النهضة العربية. القاهرة.
40. نقد الشعر. قدامة بن جعفر. مكتبة الخانجي. القاهرة. 1978.
41. نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي. مكتبة نهضة مصر 1966.
42. الهاشميات. الكميت بن زيد الأسدي. مطبعة الموسوعات. مصر. 1321.
43. الوزراء والكتاب. الجهشياري محمد. مصر 1938.

44.**ARISTOTE** : Rhétorique. Trad. Dufour (F).Lettres. Paris 1932.
45. **COHEN** Jean.Structure du Langage poétique Flammarion. Paris1966.
46. **BARTHES** (Roland) (m).Communication n.16 (Recherches Rhétoriques). Seuil 1970.
47. **ERNEST HAVET**. Etude sur la Rhétorique d'Aristote Librairie philosophique .1983.
48. **NICOLAS RUWET**. langage, musique, poésie Edition Seuil Paris. 1972.
49.**PERLMAN** (ch) – **Olbrechtes** – Tyteca (L). Traité de

l'argumentation 3e éd de l'Université de Bruxelles. 1976.

50.**PERLMAN.** a. L'empire rhétorique J. Vrin Paris 1977.

b. "Rhétorique et philosophie". poétique, n5. Seuil Paris 1971.

فهرس الموضوعات

مقدمة الطبعة الثانية 6-5

مقدمة الطبعة الأولى (1985)

تمهيد : لماذا البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي. 10-7

الفصل الأول: الموضوع والمنهج 27-11

1 ـ موضوع الكتاب 19-13

2 ـ أسس بلاغة الخطاب الإقناعي 23-20

3 ـ الحجج والبراهين الخطابية 27-24

الفصل الثاني: مقام الخطاب

في القرن الأول الهجري 68-29

مدخل نظري 37-31

الأسس المقامية لتصنيف الخطاب 40-37

1 ـ مقامات الخطابة الدينية 50-40

1.1ـ مقام التعليم 43-41

1 .2 ـ مقام الوعظ 46-43

1 .3 ـ مقام المناظرات المذهبية 50-46

2 ـ مقامات الخطابة السياسية 57-50

2 .1 ـ الحوار بين الأنداد 55-51

2. 2 ـ الحوار بين الراعي والرعية 57-55

ـ الرؤية العامة في الخطابة الدينية والسياسية 59-58

1 ـ الدعوة إلى الطاعة
2 ـ الدعوة إلى العصيان
3ـ الوعد
4ـ التهديد والوعيد
3 ـ مقامات الخطابة الاجتماعية وشؤون الحياة 62 ـ
3 ـ 1 ـ في التنظيم الاجتماعي 67-62
3 ـ 2 ـ في المشاركة الوجدانية 68-67

الفصل الثالث: صور الحجاج: 69 ـ 94

القياس،المثال، الشاهد (الدعوة إلى الانسجام)
1 ـ الانسجام الداخلي 90-71
1ـ 1 ـ القياس الخطابي 82-71
نماذج من الأقيسة الخطابية 82-73
1 . 2 ـ المثل 90-82
2 ـ الانسجام مع الخارج 94 ـ 90

الفصل الرابع: الأسلوب 124-95

تمهيد 100-97
1 ـ البناء الدلالي أو (تركيب المعاني) 111-100
البنية الصوتية أو إيقاع النص الخطابي 124-112
ا ـ الخطب المسجوعة 118-115
ب ـ خطب بين السجع والازدواج (متوسطة الصناعة الصوتية) 121-118
ج ـ خطب مرسلة (قليلة الصناعة) 124-122

ملحق : نصـوص مـن المتـن المـدروس

1 ـ الحجاج : خطبته حين ولي العراق 128-125
2 ـ خطبة فرغانة : تأبين 129
3 ـ وصف أبي بكر وعمر من خطبة للسيدة عائشة 130
4 ـ خطبة الوداع للرسول (ص) 133-131
5 ـ تهنئة وتعزية: خطبة عبد الله بن همام السلولي 134

الفصل الخامس: ترتيب أجزاء القول 142 ـ 135

تمهيد نظري **141-137**
في الخطابة العربية 142 -141

نموذج عام :
خطبة للحجاج في أهل الكوفة ولأهل الشام **145-143**
(البراهين الخطابية. الأسلوب. تنظيم أجزاء القول)

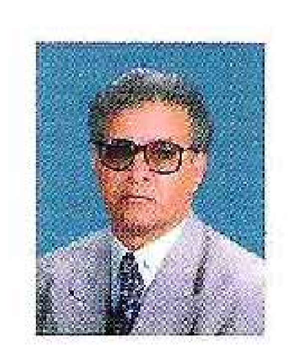
خاتمة: من الخطابة إلى الكتابة الفنية 161ـ 147

ـ البدايات الأولى 158-149
ـ الدواوين وتطور النثر المكتوب 161-158

المصادر والمراجع **166-163**
ا ـ العربية 166-163
ب ـ الفرنسية 167-166

صدر للمؤلف

1986	في بلاغة الخطاب الإقناعي. مدخل نظري وتطبيق لدراسة الخطابة العربية	ط1. دار الثقافة د. البيضاء
1990	تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية.	ط.الدار العالمية د. البيضاء
1990	اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم	ط. دراسات سال د.البيضاء
1991	الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية	ط.دراسات سال د. البيضاء
1992	الإفراني وقضايا الثقافة والأدب في مغرب القرنين 17و18م.	ط. الدار العالمية د. البيضاء
1986	بنية اللغة الشعرية.جان كوهن (ترجم بمشاركة ذ.محمد الولي)	ط. دار توبقال د. البيضاء
1987	الاتجاهات السميولوجية المعاصرة. مارسيلو داسكال(بالاشتراك مع أخرين)	ط.إفريقيا الشرق د.البيضاء
1989	ترجمة: البلاغة والأسلوبية. هنريش بليت	ط1. دراسات سال. د. البيضاء.
1999		ط2. إفريقيا الشرق بيروت . الداؤ البيضاء
1996	نظرية الأدب في القرن العشرين. (مقالات مترجمة)	ط. إفريقيا الشرق /د.بيضاء
1997	تحقيق: المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل. محمد الإفراني	نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . الرباط،
1999	البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها	إفرقيا الشرق، بيروت.الدار البيضاء



في بلاغة الخطاب الإقناعي

مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية

—الخطابة في القرن الأول نموذجا—

يقدم هذا الكتاب قراءة إشكالية للخطابة العربية في مرحلة تميزت بدينامية حوارية فريدة في التاريخ العربي: مرحلة تكون الأحزاب، وبداية نشوء المذاهب.

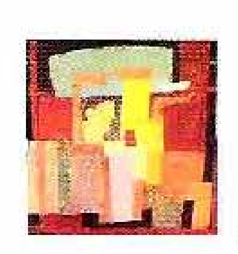
إنها قراءة في ضوء بلاغة الإقناع وتاريخ الخطاب؛ فبرغم كون العمل في مظهره عملا تطبيقيا فإنه يحمل هم تنظير بلاغة الإقناع، كما يحمل هم تفسير فاعلية الخطاب في ضوء المقام الحضاري العام، والمقامات النوعية الخاصة: اجتماعية وسياسية ودينية.

وقد زادت الحاجة إلى هذه القراءة البلاغية -التاريخية في الواقع الخطابي الراهن الذي يتميز بحيوية كبيرة، ويحتاج بدوره إلى اجتهاد خاص لكشف خصوصياته. فهذا العمل يقدم -فضلا عن قيمته الذاتية- فرصة للمقارنة والتأصيل.

محمد العمري:

من مواليد سكورة جنوب المغرب سنة 1945، حصل على دبلوم الدراسات العليا سنة 1981، ثم على دكتوراة الدولة في الآداب سنة 1989 من جامعة محمد الخامس بالرباط حيث يعمل حاليا أستاذا للبلاغة والنقد الأدبي.

موقعه على الأنترنيت: www.medelomari.com.



اللوحة للفنان:
اسكندرى تربفان ايرج



ISBN 9981-25-188-5
9789981251892